الفصل الثالث

- **النمو السكاني في مصر والشام:**

أشار أحد الباحثين المعاصرين أن عدد السكان قد زاد في النصف الأول من القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي وخاصة في "مدينة القاهرة بمقدار ٦٠٠.٠٠٠ نسمة"، وازداد سكان الشام أيضاً لظهور ضواحي سكنية جديدة، وفى أواسط القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي افترض أنه يوجد في مصر حوالي ٣ ملايين نسمة وحوالي ٩٠٠.٠٠٠ نسمة في الشام[٧٤٨]. وفى دمشق كان عدد السكان حوالي ١٠٠٠ نسمة في عام ٧٣٢هـ/ ١٣٣٢م على حد قول الرحالة لابروكير la broquiere بسبب الخراب الشديد[٧٤٩].

بدأ التناقص السكاني في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي نتيجة للطاعون عام ٧٤٩ هـ / ١٣٤٧ م والذي أطلق عليه الموت الأسود أو الفناء الكبير - ويعد ذلك الطاعون هو البداية الحقيقة للتدهور السكاني في ذلك الوقت - وقد بدأ ذلك الطاعون في وسط آسيا وأنتقل إلى منطقة البحر الأسود عام ١٣٣٦ م بسرعة رهيبة، وانتشر في صفوف الجنود المغول، فأمر الخان المغولي بقطع رؤوس الجنود المصابين بالمرض، ثم انتقل إلى كافا (ميناء على البحر الأسود) عن طريق التجار الجنوية، وكذلك انتشر عن طريق قوافل التجارة في طريق الحرير من الصين، بغداد، أرمينية إلى المدن الإيطالية فوصل إليها ونقلت العدوى، وزاد الأمر وتقدم الفناء وحاول البعض الفرار إلى الإسكندرية وبلاد الشام، ومن هنا انتشر الوباء في مصر ثم بلاد الشام[٧٥٠]، وضاع عدد كبير من سكان مصر فيذكر ابن إياس

([٧٤٨]) آشتور، التاريخ الاقتصادي، ص ٣٧٩-٣٨٠.

([٧٤٩]) ايرلابيدوس، المدن الإسلامية، ص ٦٣ ؛ Wright , Early Travelers , p. 294.

([750]) Wolff , How many miles? , p. 114.

أنه في كل يوم كانت تخرج من القاهرة نحو عشرون ألف جنازة وعدد الذين ماتوا في شهر شعبان ورمضان وصل إلى حوالي ٩٠٠.٠٠٠ نسمة[٧٥١]. وكان يموت في حلب في اليوم ٥٠٠ إنسان وفى غزة أكثر من ٢٢ ألف حتى أغلقت الأسواق، وشمل الموت أهل الضياع والقرى[٧٥٢]، واستمر ذلك الوباء لمدة عامين ثم انحسر تدريجياً، ولكن أثره كان عميقاً جداً حيث مات أكثر من ثلثي السكان[٧٥٣].

وعندما زار الرحالة فريسكو بالدي frescobaldiوأصدقاؤه مصر عام ٧٨٦ هـ/ ١٣٨٤م وجد أن الإسكندرية بها حوالي ٦٠ ألف نسمة من اليهود والمسيحيين والمسلمين، وفى القاهرة شاهد أعداداً كبيرة من الناس في الشوارع ينامون في العراء وصل عددهم إلى أكثر من ١٠٠ ألف شخص ويعملون أعمالاً متنوعة ويتقاضون في اليوم حوالي درهما واحداً[٧٥٤]، أما سيجولى sigoli وجيوشي Gucci رفقاؤه في الرحلة فقد رأوا أن عدد سكان القاهرة (مصر) كان حوالي ٣ ملايين نسمة. [٧٥٥]، وهم أيضاً لاحظوا أن عدد السكان في مصر كان قليلاً مقارنة بالسنوات السابقة وأكدوا أن سبب ذلك هو الطاعون الذي حدث عام ٧٦٥هـ/ ١٣٦٣ م حيث مات في القاهرة عدد كبير من السكان ففي ثلاثة أيام توفى أكثر من ٥آلاف شخص، وفى أيام أخرى وصل عدد المتوفين إلى ١٠ آلاف أو إلى ١٦ ألف، فلنتخيل عدد المتوفين إذا استمر ذلك الطاعون لمدة ثمانية شهور أخرى.[٧٥٦]، ويبدو أن ذلك الطاعون الذي حدث ٧٦٤ هـ - ١٣٦٢م وبدأ في القاهرة والوجه البحري، ثم تزايد بالقاهرة وامتد إلى دمشق وحلب

([٧٥١]) ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ص ٥٢٨ ؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٠، ص ١٩٥- ٢٠٧.

([٧٥٢]) ابن تغري بردي، نفسه، ص ١٩٨.

([٧٥٣]) الحسن بن عمر بن حبيب، تذكرة النبيه، ج٣، ص ١١١ ؛ مزيد من التفاصيل انظر: السيوطي، حسن المحاضرة، ج٢، ص٢٩٧ -٢٩٨ ؛ ابن ايبك الدوادر، كنز الدرر، ج٩، ص ٣٥٨ - ٣٥٩ ؛ الصيرفي، نزهة النفوس، ج٣، ص ٢٤١.

([754]) Frescobaldi , A visit to the Holy Places , p. 39 , 49 .

([755]) Ibid ,pp.100,172.

([756]) Frescobaldi , A visit to the Holy Places ,pp.100,172.

وغزة، وهلك مالا يحصى من الناس وبلغ عدد الموتى في اليوم ٢٠٠٠ شخص[٧٥٧].

وعندما زار الرحالة الفرنسي أوجيه لإنجلير seigneur de angleur عام٧٩٨هـ/ ١٣٩٥م القاهرة وجد أنها مليئة بالسكان ومزدحمة بصورة لا يصدقها أحد [٧٥٨]، وفى الحقيقة فإنه خلال الفترة من عام ٧٨٦هـ ١٣٨٤ م إلى عام٧٩٨هـ/ ١٣٩٥ م حدثت عدة مجاعات وأوبئة بعضها استمر لعدة شهور وبعضها لعدة أيام، وأثر ذلك بشكل كبير على سكان القاهرة، ولكن يبدو أن معظم الرحالة لم يحصوا عدد السكان بدقة، وذلك نظراً لضيق الشوارع في القاهرة وتلاصق المنازل والمحلات، ولذا فإن أي عدد ولو كان صغيراً في الشارع يظهر على أنه عدد كبير جداً مقارنة بعدد السكان في الدول الأوربية في ذاك الوقت.

يلاحظ أيضًا أنه منذ منتصف القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي كان عدد السكان بصفة عامة في مصر والشام كان آخذاً في التناقص وتلك حقيقة لفتت انتباه الرحالة الأوربيين من المسيحيين واليهود على حد سواء حيث لاحظ الراهب فيلكس فابري Felix Fabri والذي زار بيت المقدس عام ٨٨٦ هـ / ١٤٨١م وأقام فيها فترة أن بالمدينة أكثر من ٥٠٠ يهودي وأكثر من ١٠٠٠ مسيحي فقط ولكنه لم يذكر أعداد المسلمين في المدينة، كما لاحظ أن معظم سكانها قد غادروها بسبب خرابها وتدمير أجزاء منها لدرجة أنها كانت تستخدم لرمي الجثث الحيوانات الميتة وأن هناك مناطق زراعية خصبة لم تجد من يزرعها ويسكنها ويعتني بها [٧٥٩]، وأوضح الأب سوريانو souriano أن السبب في قلة عدد السكان في بيت القدس هو انتشار الطاعون الذي كان يتكرر كل عشرسنوات تقريباً[٧٦٠]، وفى نفس العام ذكر ميشولم بن مناحم meshullam Ben menahem اليهودي أن عدد المسلمين كان حوالي عشرة آلاف و٢٠٠ عائلة يهودية[٧٦١].

---

(٧٥٧) ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ص ٥٩٢ ؛ ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج٣، ص ٢٥٩.

(758) langnon , le saint voyage , p. 58.

(759) Fabri , The Wandering , vol 2 p1 , p. 229.

(760) Souriano , Treaties on the holy Land , p. 10.

(761) Adler , Jewish Travelers , p. 189.

لاحظ الرحالة فان دي جوز جستيل joss van Ghistele الذي زار القاهرة عام٨٨٨هـ/ ١٤٨٣ أن بها حوالي ٨ آلاف مسيحي من الهنود والأرمن ومسيحي الحزام والجورجيين والنوبيين وغيرهم من الطوائف الأخرى، وحوالي ٥ آلاف يهودي فقط بينما أنه منذ سنوات مضت كان عدد سكان القاهرة حوالي ٧ ملايين، وكان فيها ١٨ مدينة جميلة وكان فيها العديد من الحرفيين والعلماء أما الآن فقد اختلف الوضع [٧٦٢]، وعلى الرغم من مبالغة الرحالة جستيل في تقدير عدد سكان القاهرة فإن كلامه عن قلة السكان عن السنوات الماضية يبدو صحيحاً بدرجة كبيرة، في حين رأي برنارد فون برنباخ Bernard von breydenbach الذي زار القاهرة في نفس العام أنه يوجد بها حوالي ١٥ ألف يهودي، ورغم اختلاف العدد عما ذكره جستيل إلا أنه رأى أن القاهرة مدينة مزدحمة جداً وعدد سكانها يفوق سكان إيطاليا كله[٧٦٣].

ذكر عوبديا برتينورو الإيطاليObadiah de Bertrinoro أن عدد اليهود في بيت المقدس عام ٨٩٣هـ/ ١٤٨٧ م نقص كثيراً واختفت ٣٠٠ أسرة يهودية، وذلك بسبب الضرائب الباهظة التي كانت تفرض عليهم والتي وصلت إلى ٧٥ دوكة ذهبية على كل يهودي في القاهرة وفي بيت المقدس على المسيحيين والمسلمين على حد سواء ولم يبق في المدينة سوى النساء والفقراء، وكان يوجد في الخليل حوالي ٢٠ عائلة يهودية فقط. ثم نقص عددهم بسبب المجاعات، ففي نفس العام رأى عوبديا عدداً كبيراً من اليهود في بيت المقدس ظلوا لعدة أيام يبحثون عن الطعام والخبز ولم يجدوا شيئاً يأكلوه وماتوا في منازلهم والكثير منهم عاش على الحشائش، وهكذا بقي في بيت المقدس حوالي ٤٠٠٠ أسرة من المسلمين والمسيحيين أما عدد اليهود فبلغ حوالي ٧٠ أسرة فقط من الشيوخ والأرامل. [٧٦٤] كذلك ذكر الرحالة كازولا pietro casola الذي زار المدينة عام ٩٠٠ هـ / ١٤٩٤ م أن المدينة بها عدد قليل من المنازل وأن

([762]) Ghistele , Voyage en Egypte , p. 20 , 193-140.

-

([763]) Larrivaz , Le Saints Peregrinations de Bernard , p. 56.

([764]) Adler, Jewish Travelers , pp. 229 -230, 234,237,234-235 .

سكانها ليسوا كثيرين [٧٦٥] وفي يافا كان عدد سكانها حوالي ٢٠٠٠ نسمة في الماضي ولكنها الآن مدمرة بشكل واضح ولا يعيش فيها أحد[٧٦٦].

كان الوضع في القاهرة أكثر ازدهارا مما في بلاد الشام أو بيت المقدس وفقًا لما رآه الرحالة الأوربيون، حيث رأى الرحالة جلبيرت دي لانوي Gilhebert de lanoy عام ٨٢٥هـ/ ١٤٢١ م أن مدينة القاهرة كانت مكتظة بالسكان والتجار من كل أنحاء العالم وتبدوا أسوار المدينة لمن يمر بها غير مرئية بسبب كثرة الزحام في الضواحي وكثرة تلاحق المنازل المتجاورة للأسوار[٧٦٧]، ذلك بالإضافة إلى ما رواه الرحالة اليهودي ميشولم meshullam Ben menahem سنة٨٨٦هـ/ ١٤٨١ م من أنه لو أمكن وضع كل من مدن روما وميلان وبادو وفلورنسا بالإضافة إلى أربع مدن أخرى إليها فإنها لن تستوعب معاً عدد سكان القاهرة[٧٦٨]، كذلك ما رواه الرحالة الفرنسي جستيلjoss van ghistele من أنه وجد في القاهرة أعداد كثيرة من السكان بحيث يعيش كل ٣ أو ٤ أسر في منزل واحد ولا يمكن أن تستوعب المدينة ذلك العد الضخم من السكان ولذا كان يعيش الكثيرين منهم حول المدينة [٧٦٩]،أما الأب سوريانوSouriano ذلك الراهب الفرنسيسكاني الذي كان في بيت المقدس وزار القاهرة عام ١٤٨٩ م فقد ذكر أن المدينة بها عدد ضخم من السكان يصل إلى حوالي مليون ونصف وليس أقل من ذلك[٧٧٠].

وبعد مرور سبع سنوات زار القاهرة الرحالة الألماني فون هارف von harff عام٩٠٢هـ/ ١٤٩٦ م وعبر النيل من رشيد إلى فوه ووجد أن هناك ٨ مدن على ضفتي النيل وبها عدد كبير من السكان يتراوح عددهم من ٣٠٠٠ إلى ٤٠٠٠

([765]) Casola , Pilgrimage to Jerusalem , p. 251.

([766]) Ibid , p. 235.

([767]) Potvin , Oeuvres de Ghillebert , p. 114.

([768]) Adler , op.cit , pp. 151 – 156.

([769]) Ghistele ,Voyage en Egypte , p. 20 .

([770]) Souriano , Treaties on the holy Land , pp. 191 -193 .

نسمة والمنازل لا تحصى[٧٧١]، كما شاهد في القاهرة أناس كثيرون بحيث يعيش في المنزل الواحد ١٠ أو ٢٠ عائلة وبها حوالي ٣٠.٠٠٠ مسيحي من جميع الطوائف والمذاهب بالإضافة إلى ١٠ آلاف يهودي، ورغم عدم وجود إحصاء محدد لسكان القاهرة إلا إنها مزدحمة وتعدادها فاق سكان كولونيا، ووجد بها حوالي ٢٤.٠٠٠ طباخ و ٤٨.٠٠٠ خباز و ٣٠.٠٠٠ من السقائين الذين يجلبون الماء، وكل ذلك غير المماليك وزوجاتهم والخدم والجواري والذين يمثلون ١٠٠.٠٠٠ نسمة[٧٧٢].

وعندما زار الرحالة دومينيكو تريفزاني في عام ٩١٨هـ/ ١٥١٢ م القاهرة كسفيرا للبندقية لاحظ أن عدد سكانها قليل وأنها من قبل كان بها حوالي مليون ونصف أما في وقت زيارته فلا يوجد بها نصف ذلك العدد ومعظمهم من الرعاع والعامة[٧٧٣]، ولا غرابة في ذلك فقد تعرضت مصر للعديد من حوادث المجاعات والأوبئة والطواعين خاصة مع بداية القرن الخامس عشر الميلادي حيث انتشر الوباء من عام٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م واستمر حتى عام٨٢٣هـ/ ١٤٢٠م باستثناء فترات متقطعة ثم عاد أكثر حدة في عام٨٣٣هـ/ ١٤٢٩ م وكذلك الطاعون القوي والأكثر حدة من عام٩٠٢هـ/ ١٤٩٦ م حتى عام ٩٠٩هـ/١٥٠٣م ثم اختفى ليعود مرة أخرى عام٩١٨هـ/ ١٥١٢ إلى عام٩١٩هـ/ ١٥١٣ م وفتك بالعديد من السكان، ورغم ذلك كان الرحالة يرون أن سكان القاهرة يزدادون، ولكن لا أعتقد أن الطواعين والأوبئة المذكورة سابقاً على سبيل المثال لا الحصر أنها لم تكن مؤثرة في عدد السكان بل أثرت بشكل واضح بدليل وفاة أكثر من ١٠٠ شخص أو ٣٠٠ شخص في اليوم الواحد فلو استمر الطاعون لعدة شهور فسوف يقضي على عدد كبير جداً من السكان كما أوضحنا سابقا، بالإضافة إلى تدهور الحالة الصحية في أواخر العصر المملوكي، وعدم اهتمام السلاطين المماليك بالشعب وهروبهم من المناطق الموبوءة إلى مناطق أخرى أكثر أماناً وأكثر نظافة تاركين عامة الناس لمصيرهم في مواجهة الجوع والموت [٧٧٤].

([771]) Harff , The Pilgrimage of Arnold Von Harff , p. 99.

([772]) Ibid , pp. 112 -113 , 124 -125.

([773]) Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud , P. 208.

([٧٧٤]) المقريزي، السلوك، ج٢ق٣، ص ٧٧٠ ؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٠، ص ٢٠٤.

وهكذا شهدت مصر والشام في بداية العصر المملوكي نمواً سكانياً ملحوظاً نتيجة لفترة السلام التي بدأها الظاهر بيبرس منذ توليه السلطة، حيث قام بعقد مهادنات مع الملوك الصليبيين، وذلك للتفرغ لصد الهجمات المغولية التي غزت معظم بلدان الشرق الإسلامي، وتعرضت تلك البلدان إلى عمليات الذبح الجماعية والفزع والرعب فاستطاع المماليك صدهم قبل أن يصلوا إلى حدود مصر، وجلبت تلك الحكومة القوية لكل من مصر وبلاد الشام قرناً كاملاً من الازدهار العظيم، وهكذا كان من الطبيعي تزايد السكان بالإضافة إلى هجرة الكثير من سكان العراق والبلدان الأخرى إلى بلاد الشام ومصر، فعندما تقدمت جيوش المغول في العراق وبعدها في سوريه تملك الرعب والخوف نفوس الكثير من الناس فغادروا المدن والقرى وهربوا إلى بلاد الشام ومصر، وحتى بعد انحسار الغزو المغولي استمرت الهجرة إلى مصر وبلاد الشام وذهب إليها الفقهاء والعلماء ورجال الدين بأعداد كبيرة، كما أصبحت مصر مقراً للخلافة العباسية ومركزاً للحضارة الإسلامية فكانت عامل جذب للناس للعيش فيها، بالإضافة إلى هجرة أعداد كبيرة من المغول إلى مصر خاصة عند الصراعات بين الإيلخانات المغولية في العراق فخافوا من الانتقام الدائم فهربوا من بلادهم، وهكذا شهد النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي تدفقاً من الهجرات العربية والمغولية إلى مصر وبلاد الشام.

إن ازدياد السكان في بلاد الشام كان أبطأ من ازديادهم في مصر لأن بلاد الشام قد تعرضت لغزوات المغول المتكررة ودمرت بعض المدن الساحلية في لبنان وحلب وفلسطين، كما تعرضت المدن في بلاد الشام إلى الخراب والتدمير بعد سقوط عكا، حيث قام المماليك بتدمير الحصون والقلاع خوفاً من عودة الصليبيين إليها مرة أخرى، وبذلك فقدت بلاد الشام الكثير من سكانها في تلك الفترة، كما اضطر الكثيرون من الناس إلى الهرب من بلادهم وديارهم.

أضف إلى ذلك الاستقرار السياسي الاستقرار الاقتصادي وتحسين الأوضاع المالية في مصر والشام وازدهار حركة التجارة الداخلية والخارجية مما ساعد على توفر سبل العيش والإقامة بأمان وحرية، كما عمل الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون

والناصر محمد بن قلاوون على تحسين العلاقات التجارية مع الدول الأجنبية فساهم ذلك في تحسين النقد والوضع الاقتصادي، كما ألغوا بعض الضرائب والمكوس التي كانت مفروضة على السكان وهكذا كان استقرار النظام بكل جوانبه داعياً لزيادة السكان في مصر والشام وساعد ذلك على زيادة الهجرات الخارجية الأخرى.

وعلى أية حال فإن الأوبئة والطواعين قد استطاعت أن توقف النمو السكاني الذي شهدته البلاد مع بداية ذلك العصر ثم تسببت في التناقص المستمر في أعداد السكان حتى وصلت إلى الثلث تقريباً كما أنه يلاحظ أن تناقص السكان في بلاد الشام كان أكثر وضوحاً من تناقصه في مصر وهكذا حدث هبوط في عدد السكان مع بداية القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي أثناء فترة حكم المماليك الجراكسة، وذلك نتيجة عدة عوامل متشابكة تمثلت في عدم الاستقرار السياسي داخلياً وخارجياً والتدهور الاقتصادي الملحوظ، وعدم الاستتباب الأمني الداخلي بالإضافة إلى تغير النقد بصورة مستمرة وابتكار أنواع جديدة من الضرائب الباهظة، وانتشار الأوبئة والمجاعات على فترات متقاربة، وكذلك تدهور الحضارة الإسلامية في الشرق، وبذلك يمكن القول إن هناك فجوة واسعة بين عهد المماليك البحرية وعهد المماليك الجراكسة، وإن هناك منحنى متدهوراً للنمو السكاني كان واضحاً جداً في عصر الجراكسة.

- **الحياة الاجتماعية للسكان في العصر المملوكي:**

اختلف المؤرخون في تقسيم المجتمع في العصر المملوكي حيث قسمه البعض إلى سبعة أقسام، أو إلى قسمين فقط، ولكن الرحالة الأوربيين الذين زاروا مصر والشام في ذلك العصر قسموا المجتمع إلى ثلاثة أقسام، الأول هم المماليك العبيد الذين تولوا مناصب عليا في الدولة وعاشوا منفصلين عن سائر السكان وأصبحوا طبقة ممتازة، والثاني هم الشعب بكل طوائفه الخاضعة لحكومة السلطان سياسياً ولنفوذ الخليفة دينياً وهؤلاء كان عددهم كبيراً جداً وينقسمون إلى مسلمين ومسيحيين ويهود، والثالث هم الأعراب الذين كانوا يسكنون الصحراء أو الأعراب المستفلحين الذين عاشوا في المناطق الريفية، ولذا سوف نعرض الملامح الأساسية لحياة تلك

الطبقات من خلال ما أورده الرحالة الأوربيين، و كما سبق القول فإن طبقة المماليك عاشت منفصلة عن الشعب ولذلك يمكن إلقاء الضوء فقط على الطبقتين الرئيسيتين في المجتمع وهما السكان الوطنيون والأعراب.

- **المســـلمون:**

كان عدد المسلمين في العصر المملوكي كبيراً جداً وشكلوا غالبية السكان بصفة عامة، وقد احتفل المسلمون بأعياد عديدة معظمها دينية وذات مغزى معنوي وروحي في نفوسهم، مثل، **عيد الفطر** الذي يلي نهاية صيام شهر رمضان، ففي مصر استمر العيد لمدة ثلاثة أيام متتالية، وفي صباح اليوم الأول يذهب جميع المسلمين إلى المسجد لصلاة العيد، وفي ذلك اليوم كان العامة يجتمعون أمام منزل الإمام الذي سيصلي بهم صلاة العيد في المسجد، وهم يهللون ويكبرون حتى الوصول إلى المسجد ويلقي خطبة تشتمل علي الدعاء والشكر لله، ثم يخرج من المسجد وحوله العامة والمنشدون حتى يصل إلى منزله، وجرت العادة في هذا العيد أن يسهر الناس ليلة العيد لتجهيز ملابسهم الجديدة حتى الصباح وشراء الحلوى والخروج لزيارة القبور ويجتمع النساء والرجال معاً يغنون ويمزحون ويتوجهون إلى شاطئ النيل ويستأجرون القوارب للتنزه والتمتع بكل أنواع الترفيه [٧٧٥] ثم الاحتفال بعيد الأضحى تكريماً وتشريفاً للنبي إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام، وذلك لأن سيدنا إبراهيم قد أطاع الله عندما أمره بذبح ابنه على الجبل، لكن الله فداه بأضحية، ولذلك يقوم المسلمون في ذلك اليوم بذبح الأضاحي ويوزعونها على الفقراء والمحتاجين[٧٧٦].

أما الاحتفال بالمولد النبوي الشريف فكان له طابع خاص، لأنه أول الأعياد الإسلامية وقد حرص سلاطين المماليك وعامة الشعب على الاحتفال به احتفالاً يفوق الوصف من حيث العظمة والفخامة، وكان الاحتفال يبدأ من بداية شهر

([٧٧٥]) ابن الحاج، المدخل إلي الشرع الشريف، دار الحديث، بيروت، ١٩٨١ م، ج ١، ص ٢٨٨- ٢٨٩ ؛ Schiltberger , The bondage and Travel, p. 70.

([776]) Schiltberger ,Ibid , p. 71 .Frescobaldi , A visit to the Holy Places , p. 68 ,

ربيع الأول ويستمر حتى الثاني عشر من نفس الشهر، وكان السلطان يقيم خيمة في الحوش السلطاني بالقلعة سميت بخيمة المولد، وأول من أقامها هو السلطان قايتباي وكلفها ٣٠ ألف دينار، وكان الاحتفال الرسمي يبدأ ظهراً ويستمر حتى ساعة متأخرة من الليل ويبدأ بقراءة القرآن ويجلس مع السلطان شيخ الإسلام والقضاة الأربعة وشيوخ العلم، وبعد صلاة المغرب تمد أسمطة الطعام المنوع وبعدها ينشد المنشدون ويمدحون في الرسول عليه الصلاة والسلام(٧٧٧)، وفي بيوت العامة كانوا يحضرون القراء يتلون آيات القرآن الكريم، ثم يأتي المنشدون ومعهم الآلات الموسيقية و يقيمون حلقات الذكر. (٧٧٨)، ومن مظاهر الاحتفال بالمولد النبوي أنه عند غروب الشمس كان الناس يجتمعون هنا وهناك ويغنون بصوت مرتفع، وتنطلق المقذوفات النارية من القلعة كما يقوم العامة بإشعال نار شديدة، ويقصد بها المصابيح المشتعلة ولكنها كبيرة الحجم، وذكر لابروكيير La broquiere أن تلك النار أو المصابيح الضخمة أكبر وأقوى من الفوانيس وأحياناً يستفيدون منها في إشعال الحريق في أشرعة سفن العدو(٧٧٩).

كما احتفل المسلمون **بشهر رمضان** احتفالا كبيراً، و كان يبدأ مع رؤية هلال رمضان، حيث يخرج الناس للشوارع وعند التأكد من الهلال يعدون أنفسهم للاحتفال بالشهر الجديد كما يستعد السلطان المملوكي(٧٨٠)، ويظل المسلمون طوال شهر رمضان يرقصون ويشربون ويأكلون في الأسواق والشوارع طوال الليل حتى قبل أذان الفجر فيمتنع الجميع عن الطعام والشراب ويذهبون للصلاة في المساجد(٧٨١).

---

(٧٧٧) سعيد عاشور، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، دار النهضة المصرية، ١٩٦٢ م، ص ١٧٨ -١٨٠.

(٧٧٨) ابن الحاج، المدخل الي الشرع الشريف، ج ١، ص ١١- ١٤.

(779) Wright , Early Travelers , p. 256 .

- المقذوفات النارية: وربما يقصد لابروكيير هنا البارود الذي يستخدمه المماليك في الرد علي غارات القراصنة الأوربيين علي السواحل (الباحثة)

(780) Dopp , Le Caire , tome 24 , p. 139.

(781(Frescobaldi , op.cit, pp. 50 , 68 , Fabri , The Wandering , vol 2part 2, p. 636 , Schiltberger , , The bondage and Travel , p. 70.

وقد شهد الرحالة برندباخ breydenbach الاحتفال بليالي رمضان في القاهرة، حيث كان الناس يضيئون العديد من المصابيح على مآذن المساجد وفي الشوارع طوال الليل فيتحول إلى نهار وينعمون بالملذات والولائم والبذخ المبالغ فيه ويستخدمون الطبول طوال الليل ويستمرون في الغناء والصخب الشديد لدرجة أنه تعذر عليه النوم. (٧٨٢)، أما صديقه فيلكس فابري filx fabri فقد اندهش عندما دخل القاهرة لكثرة الأنوار والمشاعل في الطرقات والأسواق وهي جميلة الأشكال والألوان وبهرت الناظرين و كان يحملها الصغار في الشوارع وهم يغنون ويلعبون، وعندما سأل عن سبب تلك الضوضاء والزحمة والأنوار قيل له إن ذلك وقت شهر رمضان وفيه يحتفل المسلمون هكذا كل ليلة حتى نهاية الشهر(٧٨٣)، كما شاهد الرحالة الراهب الأب سوريانو Souriano طريقة التسحير بعد منتصف الليل حيث يقوم شخص بالضرب على الطبلة ودق الأبواب في الشوارع وهو يغني أناشيد وأغاني جميلة ليستيقظ الناس ويستمر هكذا حتى الصباح(٧٨٤)، وذكر ابن الحاج أنه في وقت التسحير في القاهرة يقوم المؤذن بالوقوف علي المئذنة وينادي تسحروا وكلوا واشربوا وما أشبه بذلك أو ينشدون القصائد ويسحرون بالطبلة ويطوفون بها على أصحاب الأرباع وغيرهم علي البيوت ويضربون عليها، أما أهل الإسكندرية فيسحرون بدق الأبواب علي أصحابها وينادون عليهم، وكان أهل الشام يقومون بدق الطار وضرب الشبابة والغناء والرقص واللهو (٧٨٥).

(782 (Larrivaz , Le Saints Peregrinations de Bernard , p. 47.

(783) Prescott , once to Sinai , p. 124 , Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud , P. xxiii

(784 (Souriano , Treaties on the holy Land , p. 206 , Fabri ,The Wandering , vol 2 part 2, p. 637.

– مزيد من التفاصيل عن دوران المحمل، القلقشندي، صبح الاعشى، ج٤، ص٥٧-٥٨، ٥٨٧، ابن ظهيرة، الفضائل الباهرة، ص١٩٩-٢٠٠، السيوطي، حسن المحاضرة،ج١، ص٨٨، ج٢، ص٨٨، ١١٩، ٩٨، ٢١٠.

(٧٨٥) ابن الحاج، المدخل الي الشرع الشريف، ج٢، ص ٢٥٥.

- آلة الشبابة: وهى من فصيلة الناى وهي عبارة عن قصبة جوفاء في جوانبها ثقوب ينفخ فيها

كان الاحتفال بدوران المحمل من أجمل الاحتفالات التي ينتظرها الناس في القاهرة، وحرصوا على المشاركة في ذلك الاحتفال فينادى قبل موعده بثلاثة أيام ويقوم الناس بتزيين الحوانيت والمنازل وكانت المرة الأولى لدوران المحمل في نصف رجب، أما المرة الثانية فكانت في شوال، وفي ذلك الوقت يقوم أصحاب الحوانيت بتزيينها وتجميل الشوارع وتبيت النساء والأطفال في الأسواق حتى يتسنى لهم مشاهدة الموكب في اليوم التالي، ويوضع فوق الجمل الذي يحمل المحمل كسوة الكعبة ويطوف به في القاهرة والفسطاط، كذلك يركب جماعة من المماليك السلطانية بملابس الحرب وبأيديهم الرماح ويظل الموكب يتحرك ببطء حتى يصل إلى القلعة، ثم ينصرف المحمل إلى الفسطاط [٧٨٦]،كما كان موكب المحمل يتضمن جماعة من التجار ومعهم حوالي ١٠٠ أو ١٢٠ ألف جمل تحمل البضائع والسلع و كان يقودها أحد الأمراء الكبار وهو أمير الحج ومعه ٢٠٠ مملوك، ومعهم كميات كبيرة من البضائع والأدوية والعطور والأحجار الكريمة. [٧٨٧]، وهكذا كانت قافلة الحج ترحل إلى مكة في الأوقات المعتادة مع احتفالات الناس ومعهم جماعة من راكبي الجمال أو الخيول أو مترجمين وتظل ثلاثين يوماً حتى تصل إلى مكة، وتبقى حتى ينتهي سوق التجار وينتهي الحجاج من أداء مناسكهم فترحل مرة أخرى إلى القاهرة. [٧٨٨]، وبذلك كانت رحلة الحج مرتبطة برحلة التجارة وبالتالي كانت قافلة الحجاج تضم على الحجاج لأداء الفريضة والتجار لأداء مهام تجارية.

وعند عودة قافلة الحج من مكة يخرج حاكم المدينة والنبلاء والأمراء وبعض الأعيان لمقابلة القافلة وهم يحملون القرآن وقد زينوا الجمال والخيول بالحرير وعلى ظهور الخيول سروج جميلة مطرزة بالذهب والفضة، ومعهم الموسيقيون والمنشدون

وبعض ثقوبها مفتوحة والأخرى مسدودة، انظر، الموسوعة العربية الالكترونية، مادة الناي.

([٧٨٦]) سعيد عاشور، المجتمع المصري، ص ١٨١ -١٨٣.

([787]) (Larrivaz , Le Saints Peregrinations de Bernard , p. 37.

([788]) Dopp , Le Egypte , p. 45.

الذين يضربون على الدفوف ويسيرون أمام الجمال، ويغنون بصوت عالٍ وحول القافلة عدد من الأمراء المماليك المسلحون بالسيوف بالإضافة إلى أعداد كبيرة من الجنود والعساكر من مختلف الأجناس[٧٨٩].

شاهد الرحالة الأجانب حفل زواج امرأة مسلمة وقد اندهشوا كثيراً وأعجبوا بما شاهدوه في ذلك الحفل، وبداية يجب أن نوضح أن الزواج كان يتم على عدة مراحل، المرحلة الأولى هي الخطوبة، والثانية هي عقد الزواج، والثالثة إعداد مستلزمات واحتياجات العروس، ثم ليلة الزفاف وفى تلك الليلة تقام وليمة كبيرة للرجال ووليمة أخرى للنساء، ويجتمع الأقارب والجيران في منزل العروس ويقومون بإلباسها وتمشيطها وتزيينها بالوشم برسومات عديدة ورائعة الجمال، ثم ترتدي ملابسها وتتصدر العروس ذلك الحفل بجمالها وزينتها ويستمر الجميع يرقصون ويغنون وعندما تصل إلى بيت زوجها تقبل يده،كما جرت العادة ان تقدم لزوجها سيفاً فاخراً تمسكه من طرفه ويتناوله هو من مقبضه، وتقدم النساء الهدايا من الذهب والفضة، وكانت إحدى النساء تضع على رأسها تلك الهدايا وتستمر في الرقص أمام العروس حتى نهاية الحفل [٧٩٠]، أما مستلزمات العروس فكانت ملابس كتانية وقطنية ناعمة وطشت وأباريق دمشقية وسجاجيد وسرير وغيرها [٧٩١] ، ومن الاحتفالات العائلية التي لفتت أنظار الرحالة أيضاً هو **الاحتفال بختان الأطفال**، فقد ذكر بوم جارتن Baumgartne أنه شاهد بعض السكان وهم يحتفلون ويرقصون، وكان هناك حشد وجمع غفير من الناس وهم واقفين فيما عدا واحد فقط كان جالساً على حصان في وسطهم، وعندما سأل عن ذلك الاحتفال علم أن ذلك الشخص قد تم ختانه ذلك اليوم وأن الناس يحتفلون به، كما وضح أن المسلمين يجب أن يختنوا أولادهم قبل أن يصل إلى الثالثة عشر وفقاً للشريعة الإسلامية[٧٩٢].

([789]) Wright , Early Travelers , p. 301 .

([790]) Frescobaldi , A Visit to the Holy Places , pp. 167 -68 , Dopp , Le Caire , tome , 24 , pp. 139-140 .

([791]) Frescobaldi , Ibid.

([792]) Baumgarten , The Travel of Martin Baumgarten , p. 441 .

- **المسيحيـــون:**

كان معظم الرحالة الذين زاروا مصر والشام في العصر المملوكي من المسيحيين ولذا فإنهم اهتموا بالحياة الاجتماعية للمسيحيين في الدولة المملوكية، وتقسيمهم إلى عدة طوائف، وتناولوا أيضاً وصف بعض الأعياد المسيحية التي شاهدوها مثل، **عيد أحد السعف** ويقصد به عيد الشعانين أو عيد الزيتونة، وتفسيره في اللغة العربية التسبيح ويوافق الأحد السابع من صومهم وهو يوم ركوب المسيح البغلة ودخوله القدس والناس من حوله يحملون سعف النخيل. [٧٩٣]، وفي ذلك اليوم كان احتفال المسيحيين يبدأ في بيت المقدس في عشية يوم السبت، حيث يتجه رجال الدين إلى بيتاني ويبقون وقت المساء في كنيسة القديس إلعاذر، ومع الفجر كانوا يتجهون إلى بيت فاج، حيث يركبون البغال إلى بيت المقدس، ويصعدون جبل الزيتون، ثم ينزلون منه ويقابلهم العامة بغصون النخيل والزيتون، وعندما يصلون إلى البوابة الذهبية يقوم شاب صغير بالغناء وتفتح البوابة ويدخل القس الجديد إلى كنيسة الضريح المقدس، وعندما استرد المسلمون بيت المقدس ودفنوا موتاهم عند البوابة الذهبية أصبح المسيحيون يحتفلون بذلك العيد بالمسير إلى بلدة بيتاني مع ترديد الأناشيد والآيات ثم إلى بيت فاج وينصبون قديساً جديداً ويصعدون جبل الزيتون ثم إلى وادى قدرون (وادى النار)، حيث تنتهي تلك المسيرة ولا يجرءون على المسير أكثر من ذلك خوفاً من المسلمين لأنهم بذلك سوف يمرون على مقابر المسلمين في ذلك المكان. [٧٩٤] وفى مصر كان المسيحيون يحتفلون بذلك العيد بالخروج إلى

([٧٩٣]) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٢، ص ٤١٥ ؛ المقريزي، الخطط، ج٢، ص ٢٤.

([794])Ludolph ,Description of the Holy land , p. 100,Fabri ,The Wandering , vol 1 part 2 , p. 460. –

بيتـاني: هي قرية العيزرية الواقعة في حدود بيت المقدس، وأقيمت علي إحدى الروابي الواقعة جنوب شرق المدينة المقدسة، وتبعد حوالي ٢ ميل عن بيت المقدس وفيها كانت تسكن مارثا ومريم مع أخوها إلعاذر الذي أيقظه السيد المسيح من الموت وهي مشهورة بزراعة التين وفى زمن الحكم الصليبي انشأت الملكة ميلسندا ابنة الملك بلدوين الثاني ديراً في القرية عرف باسم دير بيتاني، وقد اتسعت وتطورت واطلق عليها بلدة، انظر، بورخارد، وصف الأراضي المقدسة، ص ١٢٤ ؛ وانظر أيضًا، سعيد البيشاوي، الممتلكات الكنسية، ص ٢٣٣، حاشية (١)، مصطفى مراد الدباغ، بلادنا

المتنزهات والحدائق والحقول ولا سيما ضاحية المطرية حيث كان يوجد بئر البلسم أو البلسان الذي يعتقد المسيحيون أن السيدة مريم العذراء غسلت فيه ثياب السيد المسيح[٧٩٥].

أما **عيد سبت النور أو عيد النار** وهو اليوم الذي قبل عيد الفصح مباشرة ويعتقدون أنه في ذلك اليوم قد هبط النور أو هبطت النار من السماء على مقبرة السيد المسيح، ولذا فإنهم كانوا يوقدون المصابيح والمشاعل في كنيسة القيامة (كنيسة الضريح المقدس) [٧٩٦]، و كانوا يحتفلون به في مصر وبلاد الشام وأرمينية واليونان رجالاً ونساءً واستمر لمدة ثلاثة أيام، حيث كانت تغلق عليهم الكنيسة أيام الجمعة والسبت والأحد ويقام القداس عند جبل الصلب يوم الجمعة الطيبة، ثم قداس آخر عند الضريح يوم أحد الفصح [٧٩٧]، وفى مصر كان النصارى يجمعون في عشية ذلك العيد أوراق الشجر من الريحان وغيره ويبيتونه في إناء مملوء بالماء ويغتسلون به في اليوم التالي، كما كانوا يكتحلون فيه بالكحل الأسود الذي اعتقدوا أنه يزيد قوة الإبصار، وكانوا يذهبون فيه إلى شاطئ النهر خارج القاهرة، حيث كانت النسوة والرجال يتعرون تماماً ويدهنون أجسادهم بالكبريت ويتعرضون للشمس عدة ساعات في النهار وعند الغروب يستحمون في النهر ظناً منهم أن شرب الدواء في ذلك اليوم أكثر فائدة منه عن أي يوم آخر [٧٩٨].

ثم **عيد الميلاد** وهو اليوم الذي ولد فيه السيد المسيح في بيت لحم ويوافق اليوم التاسع والعشرين من شهر كيهك (نوفمبر)، فيجعلون عشية الأحد هي ليلة الميلاد

فلسطين، ج٢ ق٢، بيروت ١٩٧٤م، ص ١٤٢-١٤٧. ؛ Peter Graham , Top graphical dictionary of Palestine , p. 31.

(٧٩٥) ابن الحاج، المدخل إلي الشرع الشريف، ج ٢، ص ٥٩.

(٧٩٦) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٢، ص ٤١٧.

(797) Souriano , Treaties on the holy Land , p. 40 , Nicolo , A voyage Beyond the seas , p. 23 .

(٧٩٨) ابن الحاج، المدخل الي الشرع الشريف، ج ٢، ص ٥٦.

ويوقدون فيه المصابيح ويزينون الكنائس[٧٩٩]، وكل طائفة من الطوائف المسيحية تقيم احتفالها بعيد الميلاد بطريقة مختلفة وفقاً لتقاليدها وأحكامها، وذلك باستخدام الألحان والأغاني والرقص باستخدام الآلات الموسيقية وتقبيل المواقع المقدسة ولمسها بأيديهم، وكذلك تقوم النساء بالرقص والتصفيق والتجول في كنيسة الميلاد[٨٠٠]، وكان النصارى يلعبون بالمشاعل، وذكر المقريزي أنه شاهد احتفال عيد الميلاد بالقاهرة ومصر وسائر أقاليم مصر وكان موسماً جليلاً تباع فيه الشموع المزينة والمصبوغة بالألوان الرائعة، وتباع كذلك التماثيل البديعة ويشتريها الناس من مختلف الطبقات، وعرفت تلك الشموع باسم الفوانيس وكانوا يعلقونها في الأسواق بالحوانيت بكثرة ويتنافس الناس في المغالاة في الزينة وفى أثمان الفوانيس[٨٠١].

أما عن ملابس النصارى فقد تشابهت مع ملابس اليهود والمسلمين في طريقة التفصيل وحياكة الملابس ولكنها اختلفت في اللون حيث ارتدى النصارى عمامة باللون الأزرق وشد الزنار حول أوساطهم[٨٠٢]، وهذا ما سنوضحه في الصفحات التالية في هذا الفصل.

- **اليـهـــود:**

عاش اليهود في الدولة المملوكية وفقاً لقواعد وشرط العهد العمرى الذي وضعه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب منذ الفتح الإسلامي لمصر، وأهم تلك القواعد **كانت الجزية** حيث فرض على أهل الذمة من اليهود والنصارى دفع الجزية سنوياً للسلطان.[٨٠٣]، وكانت تعرف باسم ضريبة الجوالي،وقد جاء في كتب الحسبة المملوكية أن الجزية كانت تؤخذ من أهل الذمة على قدر طبقاتهم وحددتها بدينار على الفقير ودينارين على المتوسط وأربعة دنانير على الغني[٨٠٤]، وكان لزاماً على

---

(٧٩٩) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٢، ص ٤١٦ ؛ المقريزي، الخطط، ج٢، ص ٢٥.

(800) Baumgarten , The Travel of Martin Baumgarten, p. 469 .

(٨٠١) المقريزي، الخطط، ج٢، ص ٢٦.

(802) Wright , Early Travelers , p. 183 , Langnon , Le Saint Voyage , p. 43.

(803)Wright , Ibid, 183.

(٨٠٤) ابن الأخوة، معالم القربة، ص ٤٥.

اليهودي أن يأخذ معه إيصال دفع الجزية لأي مكان يذهب إليه حتى لا يدفعها مرة أخرى [٨٠٥]، ولذلك ذكر الرحالة ميشولم اليهودي الذي زار مصر عام ٨٨٦ هـ ١٤٨١م أنه كان على اليهودي أن يحصل على تصريح الخروج من البلد من السلطان إذا أراد الخروج[٨٠٦] وذلك طبعاً بعد التأكد من تسديد الجزية السنوية والحصول على الإيصال بذلك.

أما عن حياة اليهود فقد تمتعوا بحسن المعاملة في مصر أيام الفاطميين والأيوبيين والمماليك أيضاً، ولكنهم في بلاد الشام تعرضوا للاضطهاد والتعذيب أيام الحروب الصليبية، فقد قام الصليبيون عند دخول بيت المقدس بوضع اليهود في معبدهم وأحرقوه فمات عدد كبير منهم وأسر من فر من النار وتم بيعهم في سوق العبيد حيث روي أن حوالي ثلاثين يهودياً تم بيعهم بدينار واحد فقط، وبرر الصليبيون قتلهم الجماعي لليهود بتلك الصورة البشعة بأن اليهود كانوا السبب في قتل المسيح ومساعدتهم الحاكم الروماني للقبض علي السيد المسيح وبذلك قد عانوا من التعذيب والاضطهاد والقهر في كل المدن والإمارات الصليبية، وأدى ذلك إلى هروبهم من بعض المدن لدرجة أنه كادت بعض مدن فلسطينية تخلو تماماً من اليهود.[٨٠٧]، وأكد ذلك الرحالة بنيامين التطيلي الذي زار بيت المقدس عام٥٦٩هـ / ١١٧٣ م حيث رأى مدناً فلسطينية تكاد تكون خالية من اليهود فمثلا، لم يكن في مدينة نابلس سوى مائة من اليهود السامرة وحوالي مائتين في بيت المقدس يسكنون في أحد أركان المدينة تحت برج داود، أما أغلب سكانها فقد كانوا بين المسيحيين والفرنجة، وفى الخليل لم يذكر وجود أي يهودي بها، وحوالي ثلاثة يهود فقط في بيت جبرين، وكذلك في الرملة، أما في يافا فقد وجد يهودي واحد فقط وبالنسبة باقي المدن فلم يشاهد فيها يهودياً واحداً[٨٠٨].

---

(٨٠٥) النويري، نهاية الإرب، ج٨، ص ٢٤.

(806) Adler , Jewish Travelers, p. 163.

(807) Wright , Early Travelers, pp. 85 -92.

(٨٠٨) بنيامين التطيلي، رحلة بنيامين، ٣٧٥ ؛ Wright , Ibid , pp. 81-87.

ثم تحسنت أوضاعهم وخاصة بعد اتباع المماليك سياسة التسامح الديني مع اليهود وعاشوا حياة طيبة ففي عام٧٢٥هـ/ ١٣٢٤ م زار الرحالة اليهودي إسحق بن شلو Isaac Ben chelo بيت المقدس ووجد بها طائفة يهودية مكونة من آباء عائلات جاءوا من بلاد عديدة وخاصة فرنسا ومنهم زعماء طوائف وحاخامات وهم يعيشون في سعادة وهناء وطمأنينة كل حسب وضعه وموارده لأن الحكومة عادلة وتراعى حقوق اليهود. [٨٠٩] مما أدى إلى زيادة عددهم عما كانوا عليه من قبل. ولكن المسلمبن كانوا يعاملون اليهود معاملة سيئة، فذكر ميشولم meshullam أن اليهودي سواء كان من السكان المحليين أو الأجانب لا يستطيع أن يشير بإصبعه إلى مسلم و إلا قطعت يده[٨١٠]، وقد شاهد سوريانو suriano سوء معاملة المسلمين لليهود أيضاً حيث عاشوا في ذل وخضوع وتشتت ودائماً ما تعرضوا للعقاب والتعذيب ورأى أنهم منقسمون على أنفسهم ويكرهون بعضهم البعض ولا يمكن أن يلمس المسلم اليهودي وعندما يحدث شجار بين الطرفين يخلع المسلم حذاءه ويضرب اليهودي على فمه [٨١١] كما اعتاد اليهود في كل مكان أن يظهروا أنفسهم على أنهم فقراء وخاصة في البلاد العربية ويتحولوا إلى شحاذين ويذلون أنفسهم أمام المسلمين[٨١٢].

---

(3) Adler , op.cit , p. 133 .

([810]) Ibid , p. 173.

([811]) Souriano , Treaties on the holy Land , pp. 101- 102.

- يجب أن نوضح هنا أن الإسلام عامل أهل الذمة معاملة حسنة ولم يتعرض لهم بالأذى إلا في حالات خاصة وفردية فأحيانا يتعدى أهل الذمة على المسلمين أو على الممتلكات الإسلامية فيقوم العامة بالفوضى وإحداث القلق وممارسة أعمال السلب والنهب ومهاجمة اليهود أو تقوم السلطات المملوكية بالقبض عليهم في بعض الأوقات وبذلك فإن ما ذكره سوريانو ليس صحيحاً بدليل أن أهل الذمة لم يحرموا من حقوقهم الشرعية الأساسية في بلدهم وسمح لهم بتولي مناصب هامة وحققوا نجاحاً واضحا في مجالات عديدة وإذا حدث ما يعكر صفو ذلك الجو فإنما يعود إلى التعصب الديني في تلك الفترة وأيضاً إلى سوء تربية المماليك الجلبان الذين أشاعوا الفساد والاضطراب في حياة الناس والاعتداء على ممتلكات أهل الذمة ومهاجمة بيوت النصارى واليهود في أواخر العصر المملوكي وخاصة القرن الخامس عشر الميلادى وهو نفس الفترة التى زار فيها سوريانو مصر والشام. (الباحثة)

([812]) Adler,op.cit, p. 228 .

أقام اليهود في حي خاص بهم يسمى باسمهم **حي اليهود أو حارة اليهود في** بيت المقدس وإليها ينسب أحد أبواب القدس المسمى باب حارة اليهود و تقع الحارة بجوار حارة الصلتين من جهة الغرب وضمتها حارة الريشة وحارة صهيون الجوانية. [٨١٣]، وذلك الشارع أو الحارة كان به منازل اليهود وهم لا يستطيعون بيع المنازل ولا إعادة بنائها من جديد لأن القانون يلزمهم الحصول على الإذن والتصريح بإعادة البناء، وأن الحصول على التصريح يتكلف أموالاً كثيرة أكثر من بناء المنزل، وقد تعرضت تلك المنازل للهدم والدمار وقل عددها عما كانت عليه في الماضي، كما عاش بعض اليهود في جبل صهيون. [٨١٤]، وكان لزاماً على اليهود والنصارى أيضاً أن يمكثوا في بيوتهم في المساء حيث كانت تغلق الشوارع في المساء حتي الصباح وكذلك يوم الجمعة وقت صلاة المسلمين منذ الظهر حتى المساء ومن يخرج عن تلك القاعدة ويخرج للشارع يتعرض للعقاب[٨١٥].

أما عن التقسيم الديني لليهود فذكر الأب سوريانو suriano أن اليهود كانوا ينقسمون إلى ثلاثة طوائف هم، الربانيون، و القراءون، والسامرة، وتلك الطائفة الأخيرة لم يكن في استطاعتها العيش في بيت المقدس بسبب معتقداتها الدينية وإذا حدث وجاءوا إلى البيت المقدس لقضاء بعض المهام والأعمال ولم يستطيعوا إتمام أعمالهم وأتى الليل فكان لزاماً عليهم مغادرة المدينة وينامون خارجها طوال الليل. [٨١٦]،كما كان لدى اليهود نظام قضائي منظم وعلى رأسه الناجيد وهو رئيس الطوائف اليهودية كلها ويقيم في القاهرة وهو مسئول عن جميع الطوائف اليهودية وله الحق في تعيين رؤساء لطوائف القرائين والسامرة، أما الناجيد فكان يتم اختياره من الربانيين ويتم تعيينه من قبل السلطان وتحت إمرته أربعة قضاة مساعدين، ومن مهامه توجيه العقاب للآثمين من اليهود والحكم في القضايا الجنائية والمدنية والزج بأي إنسان في السجن إذا خالف قراراته[٨١٧].

([٨١٣]) الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢، ص ٥٢.

([814]) Adler, Jewish Travelers , p. 236 .

([815]) Ibid , p. 223 .

([816]) Souriano ,op.cit , pp. 101 -102 .

([817]) Adler , Jewish Travelers , p. 172 , 229 .

أما عن الوظائف والأعمال التي مارسها اليهود فكانت معظمها متصلة بالتجارة والربح المادي أو بالصناعات المميزة التي يعتمد عليها السكان والتي تباع بأسعار مرتفعة لتحقيق أعلى دخل مادي لليهودي، ولذلك كانوا يعيشون ضمن الطبقة الوسطي وهي الطبقة التي كانت تضم صغار التجار والحرفيين، لذا فإنهم عملوا في كل فروع التجارة والحرف المتنوعة. وكان اليهود السامرة أغنى طوائف اليهود في القاهرة وتولوا مناصب عليا في الدولة ووكلاء تجاريين أو عملوا في البلاط المملوكي وامتلك أحدهم حوالي ٢٠٠.٠٠٠ دوكة ذهبية أما القرائين فهم أغنى من الربانيين أيضًا، وكثير من اليهود عملوا بالتجارة ولهم حوانيت أنيقة، وبعضهم اهتم بالعلوم والطب والفلك والرياضيات، و منهم من عمل بدراسة الشرع المقدس، وهناك من قام بنسخ الكتب المقدسة للمسافرين الأجانب الذين يشترونها بسعر مرتفع، كما عمل اليهود بالطب مثل الرابي صموئيل Samuel وابنه يعقوب واشتهرا في تلك المهنة وتقربا لدى السلطان المملوكي[٨١٨]، وقد قابل الرحالة بيترو كازولاpietro casola أحد الأطباء اليهود من أصل إيطالي في مدينة القدس[٨١٩]، وعندما أصيب الرحالة لابروكبير la broquiere بالحمى أثناء سفره إلى بيت المقدس أحضر له الأعراب طبيباً يهودياً من صقلية أعطاه الدواء لتخفيف آلامه وخفض درجة حرارته وعلاج الحمى[٨٢٠]، ونفهم من المصادر المملوكية المعاصرة أن عدد الأطباء اليهود كان كبيراً، بالنسبة إلى المسلمين إذا يروى أن أكثر ما تعيش به اليهود والنصارى هو جباية الخراج والطب [٨٢١]،كما أشار ابن الأخوة إلى أن المسلمين لا يعملون في مجال الطب ولكن يعمل بتلك الحرفة أهل الذمة من اليهود والنصارى وتكاد تخلو بعض الأماكن من الأطباء المسلمين. [٨٢٢]، كما عمل اليهود بعصر الخمور وتاجروا

([818]) Adler,op.cit, pp. 227,133-134,173.

([819]) Casola , Pilgrimage to Jerusalem , p. 271 .

([820]) Wright , Early Travelers , p. 291 .

([٨٢١]) علي بن سعيد المغربي، النجوم الزاهرة في حلي حضرة القاهرة، تحقيق حسين نصار، القاهرة، ١٩٧٠ م، ص ٢٨.

([٨٢٢]) ابن الأخوة، معالم القربة، ص ١٦٦.

فيها[٨٢٣]، وفى مدينة رام الله وجدت ثلاث عائلات يهودية تعمل بوظائف عديدة ذات ثروة وقوة مادية ووضع اجتماعي مرموق منها تجارة القطن، وفى صرفند عملوا بحرفة دباغة الجلود[٨٢٤] والتي برعوا فيها في دور الشرق وظلت مصدراً اقتصاديا مهماً لهم لقرون طويلة.

بالإضافة إلى تلك الوظائف والحرف فقد عمل اليهود مرشدين وأدلاء أو تراجمة للحجاج والرحالة الوافدين إلى مصر والشام لزيارة الأماكن المقدسة، وخير دليل على ذلك ما ذكره فيلكس فابري filx fabri من أن اليهود كانوا يشتغلون بخدمة الحجاج المسيحيين القادمين من الغرب وكان منهم التراجمة والأدلاء في الطرق الصحراوية[٨٢٥] كما روى بوم جارتن أن المترجم الذي استعان به كان يهودياً ليرشده في الطريق لزيارة الأماكن والمزارات المقدسة[٨٢٦].

فرض على اليهود ألوان محددة للملابس لتمييزهم عن المسلمين والنصارى، وقد تمثلت تلك القيود في إلزامهم بالغيار وهو الملبس المغاير لما يرتديه المسلمون لتميزهم. حيث فرض على اليهود (الربانيين والقرائين) ارتداء عمامة صفراء وتحدد اللون الأبيض المغطى بوشاح وردى اللون للسامرة (ويقصد به عمامة حمراء) [٨٢٧] ولكن تلك القيود لم تكن ملزمة وصارمة في كل الأوقات بل فرضت على فترات متقطعة ولم يلتزم اليهود سواء النساء أو الرجال بتلك الحدود والقيود في الملبس كثيراً، فذكر أحد الرحالة اليهود أن اليهود في الإسكندرية عام ٨٨٦هـ/ ١٤٨١ م كانوا يرتدون ملابس مثل المسلمين ولا يرتدون حذاء ويجلسون على الأرض ويدخلون

([823]) Adler, op.cit, p. 149 , 180 , Harff , The Pilgrimage of Arnold Von Harf , p. 119 .

([824]) Adler , Ibid , p. 138 .

([825](Fabri , the wandering , vol 2 part 1 , p. 105 .

([826]) Baumgarten , The Travel of Martin Baumgarten , p. 458 .

([827]) Langnon , Le Saint Voyage , p. 43 , Adler , op.cit , p. 162 , Wright , op.cit , p. 183 .

المعبد بدون سراويل. [٨٢٨]، وذكرت المصادر الإسلامية المعاصرة أن تلك القيود لم تفرض بشدة إلا في عام ٧٠٠ هـ / ١٣٠٠ م عندما زار الوزير المغربي مصر في طريقه للحج وغضب غضباً شديداً لما شاهده حيث تمتع أهل الذمة المصريون بكل مظاهر الحرية السياسة والاجتماعية وتقلدهم وظائف عليا وتسلطهم على المصريين وأصبح لهم نفوذ وقوة مادية وسياسية فاقت نفوذ المسلمين، ومن ثم أخذ الوزير المغربي يشن حملة غاضبة ضد أهل الذمة جعلت الناصر محمد بن قلاوون يصدر مرسوماً يلزم فيه اليهود بلبس العامة الصفراء ويلزم النصارى بلبس العمامة الزرقاء، وكذلك عدم ركوبهم الخيول وإلزامهم بركوب الحمير. [٨٢٩]، إلا أن ذلك المرسوم لم ينفذ بدقة فسرعان ما عادت الأمور إلى نصابها بدليل ما أمدنا به الرحالة فون هارف الذي زار مصر عام ٩٠٢ هـ / ١٤٩٦ م حيث ذكر أن ملابس المسلمين والمسيحيين واليهود ليست مختلفة في الشكل أو التصميم وقد رسم ثلاثة رجال يرتدون ملابس معينة أحدهم مسلم والآخر يهودي والثالث نصراني ويتضح من الرسم أن القفطان الذي يرتديه الثلاثة لا يختلف عن بعضهم البعض فهو يبدو على هيئة عباءة طويلة واسعة وذات أكمام واسعة وكل منهم يرتدي عمامة على رأسه مختلفة في اللون [٨٣٠]، كذلك ما أورده القلقشندى في القرن التاسع الهجرى/ الخامس عشر الميلادي من أن كل ما كان يميز أهل الذمة عن المسلمين في ذلك الوقت هو لون العمامة وكونهم يركبون الحمير على البرادع ويثني أحدهم رجله قدامه ولا مميز يعتادونه الآن سوى ما قد مناه [٨٣١]، وهكذا كان الاختلاف الوحيد بين أهل الذمة والمسلمين هو لون العمامة فقط، ولم يكن ذلك إهانة لمشاعر أهل الذمة بل كان مجرد إجراء للتمييز الديني بين السكان، ولم يقلل ذلك من شأن أهل الذمة أو أثر على العلاقات بين المسلمين وأهل الذمة من ناحية أو بين أهل الذمة والسلطان من ناحية أخرى، كما لم

([828]) Adler,op.cit, p. 161 .

([٨٢٩]) ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ص ٤٠٨، العيني، عقد الجمان، ج٤، ص ١٤٠ -١٤١ ؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٨، ص ١٣٣.

([830]) Harff , The Pilgrimage of Arnold Von Harff , p. 113 .

([٨٣١]) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١٣، ص ٢٦٣.

تذكر المصادر المعاصرة استياء أهل الذمة من تلك الفروض حتى النساء اليهوديات اللائي ارتدين ملابس تشبه ملابس النساء المسلمات وتحركن وتجولن بحرية وسمح لهن بدخول الحمامات مثلهن.

احتفل اليهود بأعيادهم بحرية تامة في عصر سلاطين المماليك وشاركهم فيها المسلمون في بعض تلك الأعياد وهى كانت تتخذ طابعاً معيناً حيث أن بعضها ذات سمة اجتماعية والبعض الآخر ذات سمة قومية. وقد قسمت أعياد اليهود إلي قسمين، الأعياد الشرعية وعددها خمسة مثل عيد رأس السنة، وعيد الكبور أو عيد الغفران أو صوما ريا، وعيد المظلة، و عيد الفصح أو الفطير، وعيد العنصرة أو الأسابيع أو الخطاب و أعياد أخرى غير شرعية مثل يوم السبت وعيد الحنكة أو الحانوكة، وعيد الفوز البور يم[٨٣٢]، وسوف نتناول تلك الأعياد كما ذكرها الرحالة الأوربيون وأهمهم الرحالة اليهود الثلاثة، إسحق بن شيلو، ميشولم بن مناحم، عوبديا جارية.

كان اليهود يحتفلون **بيوم السبت** والذي اعتبر العيد الأسبوعي لهم، وهم يقدسونه لاعتقادهم بأن الرب استراح فيه بعد أن خلق العالم كما نص في الوصايا العشر المنسوبة إلى موسى في التوراة، ولكن في سفر التثنية يبدو أن الحكمة في تقديس يوم السبت ترجع إلى الرغبة في حصول الإنسان والحيوان على الراحة بعد أسبوع من العناء والشقاء ويرتبط ذلك بالتحرر من السخرة والعبودية عندما كان قوم موسى لا يزالون في مصر عبيداً لفرعون يعملون بأمره ولا يحق لهم الراحة يوماً واحداً في الأسبوع ولذلك كانت تلك الرواية تسمح لليهود بالراحة[٨٣٣].

كان الاحتفال بعيد يوم السبت يختلف قليلاً في مصر عن بلاد الشام. ففي القاهرة جرت العادة أن يجلس اليهود على شكل دائرة على سجاده أو فراش، ويقف

([٨٣٢]) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٢، ص ٤٢٦ – ٤٢٩ ؛ النويري، نهاية الإرب، ج ٨، ص ١٨٧-١٨٩ ؛ المقريزي، الخطط، ج٤، ص ٣٦٣ – ٣٦٥ ؛ ٣٧٣.

([٨٣٣]) محاسن الوقاد، اليهود في مصر المملوكية، الهيئة العامة، تاريخ المصريين، العدد ١٣٥، ١٩٩٩م، ص ٣٨٦.

أحدهم ساقياً بالقرب منهم ومعه قطعة من القماش يفرشها فوق السجادة، ثم يحضر كل أنواع الفاكهة في ذلك الوقت ويضعها على المفرش، ويبدأ الضيوف بأخذ كئوس الخمر مع تلاوة الصلوات والقداس حتى يفرغوا من الشراب تماماً، ثم يقوم كل ضيف بأخذ ثمرتين أو ثلاث من الفاكهة، ويقوم الساقي بجمع الكئوس الفارغة ويعيد ملئها بالخمر مرة أخرى، أما الباقون فكانوا يرددون عبارات الدعاء بالصحة والعافية، وبعدها يتوجهون بملابسهم الجديدة إلى المعبد حيث يقومون بترديد الأغاني والأناشيد، ثم بأداء صلاة المغرب وتستمر الصلاة إلى ساعتين من الليل، ثم يعودون بعد ذلك إلى منازلهم ويقيمون القداس، ثم يأكلون خبزاً في حجم الزيتونة ويؤدون طقس بركة الطعام وبسبب كل تلك الطقوس كان اليهود لا يؤدون صلاة العصر جماعة في يوم السبت، كما كان يجب على كل فرد أن يشرب عدة كئوس من الخمر تصل إلى ستة أو سبعة كئوس، وبعد الانتهاء من الشرب يقدم للجميع طبق لحم كبير الحجم يتناولونه جميعاً[٨٣٤].

كان اليهودي في بيت المقدس يستيقظ ساعة أو ساعتين قبل الفجر ليلة السبت ويتلو ترنيمات مقدسة وأناشيد أخرى حتى يطلع الفجر، ثم يتلو ويردد القداس بعد أن يقوم اثنان من القراء بشرح الغرض والهدف من الأنشودة المباركة، كما يتلو الجميع فصل الأضحيات ويستمرون في التلاوة والغناء عن إسرائيل حتى ظهور أشعة الشمس، كما فرض عليهم ترديد الأذكار والأناشيد كل يوم طوال الأسبوع، ومن عادة اليهود يوم السبت عدم مغادرة المنزل إلا إذا كان ذاهباً إلى المعبد أو لتلقي دروس العلم، كما أنه لا يجب عليهم إشعال النار أو إنارة الأضواء. اعتاد اليهود كذلك الاحتفال **بعيد الشابوش** (عيد الحصاد- عيد المظلة) حيث يحتفلون به يوم الأحد وفيه كانوا يجلسون في وسط المعبد تحت ظلال سعف النخيل الأخضر وأغصان الأشجار والنباتات الدائمة الخضرة، وفى بيت المقدس أيضاً كان اليهود يحتفلون بيوم

([834]) Adler , Jewish Travelers , pp. 220 – 221.

التاسع من شهر آب (أغسطس) حيث يقوم قضاة اليهود الكبار والأعيان كل عام بالذهاب إلى جبل صهيون للصلاة والبكاء ثم يصعدون إلى وادي يوشفات ثم إلى جبل الزيتون[٨٣٥].

أما الحج اليهودي فقد كان واجباً على كل يهودي بالغ ولديه القدرة المادية والجسدية على السفر إلى بيت المقدس لأداء الحج ثلاث مرات في السنة هي أيام عيد الفصح، وعيد الأسابيع، وعيد المظلة[٨٣٦]، وكان معظم الحجاج اليهود يقومون بزيارة مدينة الخليل وذلك للحج عند مغارة المكفلية – المغارة المزدوجة (قبر إبراهيم) والتي كانت محظورة على اليهود والمسيحيين في ذلك الوقت، ولذلك كان اليهود يقومون بأداء الصلاة أمام أحد النوافذ الواقعة في السور الذي يحيط بالمغارة وكانت معظم الحقول والبساتين في الخليل وقفاً على اليهود ويتم تقديم الخبز وكافة المأكولات يومياً للحجاج من ريع تلك الحقول والبساتين.، وبالقرب من بيت المقدس كان يقع قبر النبي صموئيل وأبيه وأمه وولديه ويذهب اليهود إلى القبر كل عام في يوم الثامن والعشرين من شهر أيار (مايو) وهو يوم وفاة النبي صموئيل، ويأتي الحجاج من حلب ودمشق وحمص وغزة، ويصل عدد الحجاج والأجانب إلي حوالى ألف حاج كل عام حيث يقومون بالصلاة والبكاء، ويقوم كل يهودي بشراء الزيت ليضيئوا المعبد.، أما السامرة فإنهم كانوا يحجون إلى جبل جرزيم وليس جبل صهيون أو أورشليم حيث يصعدون ثلاث مرات في السنة على الجبل حاملين معهم حمامة ذهبية ليقدموها قرباناً على المذبح أعلى الجبل ولا يحجون إلى القدس لأنهم يعتقدون في قدسية ذلك الجبل[٨٣٧].

([835]) Ibid , op.cit , p. 236, 222,226,196.

([836]) Ibid ,op.cit , p. 205.

([837]) Adler, Jewish Travelers p. 199,193,171.

- النبي صموئيل: (شَمْويل) بالإنجليزية: Samuel تقسيم الإسم: شَم – يو – ئيل ومعناه "سَمِعَ الله" و شمويل عند أهل الكتاب هو (صموئيل) وكان قاضياً ونبيّاً وهو الذي مَسَح داوود مَلِكاً على إسرائيل في وقت طالوت، وهو الذي ذكره الله تعالى في قوله: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ

- **البـــــــدو:**

عاش البدو في الصحراء بأعداد لا تحصى حيث بلغ عددهم الآلاف ولم يكن لهم مأوى أو سكن محدد بل تنقلوا وتجولوا في الصحراء بصفة مستمرة وسكنوا في خيام مصنوعة من اللباد أو جلود الحيوانات[٨٣٨]، وكانت تصنع أحياناً من الصوف حيث يقوم الرجال والنساء بقص صوف الحيوانات وينسجونه بدون نول للنسيج، بل باستخدام أطواق خشبية يضعونها على الأرض في نصف دائرة[٨٣٩]، كما عاش بعضهم في الكهوف الجبلية أو الأكواخ الخشبية المصنوعة من الحطب[٨٤٠] ووصفهم الرحالة وصفاً دقيقاً بأنهم ذووا وجوه سوداء باهتة مرعبة ورقبتهم سوداء طويلة وهم شبه عراة يرتدون جلباباً بدون قميص ويضعون فوق رؤوسهم عمامة تحميهم من حرارة شمس الصحراء الحارقة[٨٤١].

كان البدو يجتمعون حول الآبار ومصادر المياه القليلة في الصحراء، وقد اعتمدوا عليها في الشرب وتربية الحيوانات. [٨٤٢] و لم يقوموا بأي عمل أو حرفة معينة يقتاتون منها بل اعتمدوا فقط على تربية الماشية والحيوانات ولا يأكلون الخبز إلا إذا نزلوا إحدى المدن أو صادفوا إحدى القوافل المسافرة في الصحراء ويشوون لحوم الحيوانات والأسماك على الصخور الساخنة من أشعة الشمس الحارقة. [٨٤٣]، وأحياناً كان البدو يجمعون الزهور والورود البرية لبيعها إلى الحجاج الأوربيين مقابل

مُوسَى إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ } (٢٤٦) سورة البقرة.(الباحثة)

([٨٣٨]) بورخارد، وصف الأراضي المقدسة، ص ١٧٤ ؛

Luodolph , Description of the Holy land , p. 90 .

([839]) Frescobaldi , A Visit to the Holy Places , p. 58.

([840]) Ibid , p. 65 , Fabri , the wandering , vol 2 part 2 , pp. 477 -483 .

([٨٤١]) بورخارد، وصف الأراضي المقدسة، ص ١٧٤ ؛

Luodolph , op.cit , p. 91 , Souriano , Treaties on the holy Land, p. 206.

([842]) Harff , The Pilgrimage of Arnold Von Harff , p. 136 , Wright , Early Travelers , p. 160 , Fabri , the wandering , vol 2 part 2, pp. 477 -483.

([843]) Wright , Ibid , p.160.

الخبز [٨٤٤]، وهم أيضاً شجعان وأقوياء ومولعون بالحرب ولذا كانوا يتسلحون ببعض الأسلحة مثل الرماح والسيوف ويستخدمونها أحياناً للدفاع عن أنفسهم أو للهجوم على القوافل المارة في الصحراء[٨٤٥]، وهم أيضاً من ناحية أخرى لم يخافوا من السلطان وقاموا بالإغارة على المدن والقرى وعلى المسافرين في الصحراء بدون خوف من قوة السلطان المملوكي، ولذا فإنه أحيانًا اضطر إلى مساومة البدو وتقديم الهدايا والعطايا لهم لإخماد اضطراباتهم المستمرة والتي كانت تسبب اضطراباً في الأمن الداخلي[٨٤٦].

كان هؤلاء البدو عندما يرون المسافرين قادمين في الطريق يركبون الخيول ومعهم السلاح، وتخرج النساء والأطفال لمساعدتهم في عمليات السرقة ويقابلون المسافرين ويهددونهم بالقوة، أما الأطفال فيضربون المسافرين بالحجارة ولا يسمحون لأحد بالمرور إلا بعد دفع مبلغ من المال وعندما لا يجدون أحداً لسرقته يهاجمون المدن والقرى في الليل ويحطمون الأبواب ويسرقون ما يجدونه ثم يرحلون ولا يقتلون أحداً إلا إذا كانت حادثة بالصدفة غير مقصودة[٨٤٧]، وهؤلاء البدو كانوا دائماً مصدراً للقلق والاضطراب ومتاعب للحكام والشعب على حد سواء، فارتبط تاريخهم في عصر المماليك بالفتن والثورات وحوادث النهب والسلب والاعتداء على الآمنين، وكان سبب ذلك الاضطراب هو رغبة البدو في تولى السلطة وعدم رضاهم على حكم المماليك العبيد، ولذلك فإنهم كانوا ينتهزون فرصة حدوث صراع بين الأمراء المماليك لتولى العرش خلفاً للسلطان السابق ويثيرون الفتنة والتوتر في البلاد ويعلنون الثورة على الحاكم الجديد[٨٤٨]، أو بسبب سوء الأحوال الاقتصادية نتيجة لارتفاع

---

(844) Luodolph , op.cit , p. 91.

(٨٤٥) بورخارد، وصف الأراضي المقدسة، ص ١٧٤

Souriano,op.cit, p. 206 , Harff , The Pilgrimage of Arnold Von Harff , p. 136.

(846) Wright , Early Travelers , p. 160.

(847) Fabri , the wandering , vol 2 part 2 , pp. 479 -484 .

(٨٤٨) المقريزي، السلوك، ج١ ق٢، ص ٤٧١ ؛ ج١ ق٣، ص ٧٥٤ ؛ ص ٩٢١ ؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص ٣٢٤ ؛ ج٨، ص ١٥٣ ؛ النويري، نهاية الإرب، ج ٣٠، ص ٢٠.

الأسعار وشدة الغلاء وعدم القدرة على سداد الخراج السنوي فيضطر البدو إلى شن الغارات على المدن والقرى كوسيلة للرزق[٨٤٩].

هناك بعض البدو الذين عاشوا في الريف واستقروا في القرى وأصبحوا سادة على المناطق الريفية وتعلموا الزراعة وتربية الحيوانات كالأبقار والماعز والماشية، وكانوا يمتطون الخيول والإبل، وكانوا يدفعون ضريبة أو خراجا سنويا للسلطان المملوكي، وأحياناً كانوا يرفضون الدفع ويشعلون الثورات ويعلنون التمرد،كما كانوا يمدون المدن الكبرى بالطيور والحيوانات والجياد بكثرة وبكميات أخرى من الحنطة والقمح، كما مدوا الإسكندرية والقاهرة بالسلع والمنتجات العديدة، وبذلك كان هؤلاء البدو يشتغلون بالزراعة والتجارة[٨٥٠] وهؤلاء الأعراب يمكن أن نطلق عليهم اسم العربان المستفلحين وهم العربان الذين سكنوا القرى واتخذوا الفلاحة معاشاً لهم وزرعوا الأرض ودفعوا الخراج مخالفين بذلك عادات وطبائع البدو فاندمجوا في القرى مع الفلاحين وأصبح منهم مشايخ قرى وبالتدريج بدأ هؤلاء البدو المستفلحون ينسون أصلهم وبداوتهم حتى صاروا من جملة فلاحي مصر.

- **طبقـة أخرى معدمـة:**

وجدت في شوارع القاهرة طبقة من العامة المعدمة وهم المجاذيب أو الدراويش والشحاذون والمتسولون، وكان الناس يحترمون المجاذيب وهم يتجولون في الشوارع بحرية ويأخذون ما يريدونه من الحوانيت ولا يجرؤ أحد على طردهم لأن لهم مكانة خاصة في نفوسهم[٨٥١]، كما وجدت طبقة أخرى من المعدمين بلا مأوى ينامون في الشوارع ويجلسون في الطرقات وعددهم كبير جداً يصل إلى مائة ألف شخص في حين يعيش المماليك والأعيان حياة مرفهة وغنية، وهؤلاء البؤساء والمعدمون لا حياة لهم[٨٥٢]، ولذلك لجئوا إلى مهنة التسول والغش والزيف للحصول

([٨٤٩]) المقريزي، السلوك، ج٢ق١، ص ١٢٩ ؛ ٣٣٥ ؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ص ٥٥٠.

([850]) Dopp , Le Egypte , p. 11.

([851]) Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud , P. 213.

([852]) Dopp ,Le Caire , tome24 ,p. 135 , Baumgarten , The Travel of Martin

على المال من عابري السبيل في الشوارع [٨٥٣]، أو الحصول على الهبات والصدقات من المساجد والزوايا[٨٥٤]، وعندما كان السلطان أو أحد الأمراء يقيم وليمة في القلعة أو في أحد الميادين وبعد الانتهاء من الطعام يتركون الطعام للفقراء والمعدمين ومعهم الغرابيل ينخلون به الرمال للحصول على الفتات من الخبز والطعام[٨٥٥].

وهناك مجموعة من المجاذيب الدراويش اعتقد الناس في قوتهم الروحية، وهؤلاء كانوا يحلقون رؤوسهم ولحاهم وحواجبهم وعاشوا حياة تشبه المجانين زاعمين أنهم يفعلون ذلك تطهيراً لأنفسهم وأرواحهم وهم بذلك كانوا يهربون من مباهج الدنيا ومفاتنها في سبيل رضاء الله عنهم، ولذلك كانوا يحلقون كل شئ على أجسادهم، ويمشي بعضهم وهم يرتدون القرون، وآخرون لطخوا أنفسهم بعسل النحل ووضعوا الريش على رؤوسهم، والبعض الآخر حمل أعمدة يتدلى منها مصابيح مشتعلة،وآخرون حملوا السهام والقسي وقالوا إنهم معذبو النصارى وحاولوا إيذاءهم في كل وقت [٨٥٦] وكانت تلك الطائفة من الصوفية المجاذيب تسمى الطائفة القلندرية أو القرندرية والذين شاهد ابن بطوطة لهم زاوية في دمياط وقال أنهم يحلقون لحاهم وحواجبهم. [٨٥٧]، كذلك كانت لهم زاوية في القاهرة خارج باب النصر والتي أنشأها الشيخ القلندري الجوالقي أحد فقراء العجم القلندرية ويقول عنهم المقريزى إنها طائفة تنتمي إلى الصوفية وتسمي نفسها أحياناً ملامتية، وحقيقة القلندرية أنهم طرحوا التقيد بآداب المجالسات والمخاطبات، وقلت أعمالهم من الصوم والصلاة إلا الفرائض، ولم يبالوا بتناول شيء من الملذات المباحة واقتصروا على رعاية الرخصة، ولم يطالبوا حقائق العزيمة والتزموا أن لا يدخروا شيئاً، وتركوا الجمع والاستكثار من الدنيا، ولم

Baumgarten, p. 442 ,Larrivaz , Le Saints Peregrinations de Bernard , p. 65.

([853]) Dopp , Le Caire , tome 23 , p. 123 , See Also , Wolff , How Many Miles ? , p. 119.

([٨٥٤]) ابن الحاج، المدخل إلي الشرع الشريف، ج١، ص ١٤٧ ؛ Wolff , Ibid.

([٨٥٥]) طافور، رحلة بيرو طافور، ص ٧٠.

([٨٥٦]) نفس المصدر، ص ٦٣ -٦٤.

([٨٥٧]) ابن بطوطة، تحفة النظار، ص ٣٣ – ٣٤.

يتقشفوا ولا زهدوا ولا تعبدوا، وزعموا أنهم قد قنعوا بطيب قلوبهم مع الله تعالى واقتصروا على ذلك وليس عندهم تطلع إلى طلب المزيد سوى ما هم عليه من طيب القلوب، أما الملامتية فكانوا يعملون علي كتم العبادات والتمسك بكل أبواب البر والخير[٨٥٨].

تشابهت العادات والتقاليد بين السكان في مصر والشام في العصر المملوكي سواء كانوا مسلمين أو أهل ذمة ولذلك سنوضح أهم تلك العادات والتقاليد المتشابهة سواء في الملبس أو المأكل أو في حالات الوفاة والنوم إلا أن هناك بعض الاختلافات البسيطة في تلك التقاليد التي سنعرض لها ونوضحها بالشرح والتحليل.

اعتنى الناس في عصر المماليك بمظهرهم العام، فقد حرصوا على ارتداء أفضل وأرقى أنواع الملابس من حيث الخامات والتصميم والزينة وخاصة المرأة التي اهتمت كثيراً بتطوير ملابسها وزينتها وابتكار أشكال جديدة من الملابس وألوان حديثة للزينة للسعي وراء الأناقة وجمال المظهر الخارجي، وقد أجمع الرحالة الأوربيون الذين زاروا مصر على تشابه ملابس جميع النساء من حيث شكلها العام ويمكننا تصوير الملابس التي اعتادت المرأة في ذلك العصر على ارتدائها، ونبدأ بالعباءة المصنوعة من الصوف أو الكتان أو القطن الأبيض الناصع البياض مثل الثلج وتلف بها الجسد كله فهي كانت تسمى أحيانا قميصاً واسعاً طويلاً تصل أطرافه إلى الأرض وله أكمام واسعة[٨٥٩]، وهنا انتقد ابن الحاج ملابس المرأة في ذلك العصر لأن الأكمام الطويلة الواسعة كانت تكشف يدها كما كن لا يلبسن السراويل في البيت ويقفن على باب الدور أو على السطوح في ملابس قصيرة مما يكشف عوراتهن[٨٦٠]، وتلك

([٨٥٨]) المقريزي، الخطط، ج٤، ص ٣٠١-٣٠٢.

([٨٥٩]) فارتيما، رحلة فارتيما ص ٣١ ؛ ابن الفرات، تاريخ الدول والملوك، ج٢ م٩، ص ٢٦٧، أحداث عام ٧٩٣ هـ ؛

Souriano, Treaties on the holy Land , p. 203 ,See Also, Wolff , How Many Miles to Babylon ? , p. 13.

([٨٦٠]) ابن الحاج، المدخل الي الشرع الشريف، ج١، ص ٢٤٣ -٢٤٤.

كانت ملابس فوقية، أما التحتية فكانت تصنع من الحرير أو الكتان السكندري الفاخر وبعضهن يرتدين ملابس قطنية تصل إلى الركبة، وتلك القمصان التحتية كانت مرصعة أحيانًا بالذهب والفضة ويتكلف الواحد منها حوالي مائتي دوكة ذهبية[٨٦١].

أما السراويل النسائية فكانت حريرية واسعة وطويلة مثل سراويل البحارة وفوقها حزام وأحياناً تكون طويلة أو قصيرة ولكنها مزينة ومرصعة بالذهب والفضة والأحجار الكريمة والزخارف الرائعة وبلغ قيمة السروال من ٤٠٠ إلى ٥٠٠ دوكة ذهبية[٨٦٢]، كما ارتدت المرأة بصفة عامة البرقع، أو ما يسمى الآن بالنقاب المصنوع من الحرير الأسود بحيث لا يراها أحد ولكنها تستطيع رؤية كل شيء من خلال فتحتين في البرقع[٨٦٣]، كذلك حرصت النساء في ذلك العصر على ارتداء غطاء للرأس عبارة عن عمامة أو ما يشبه القدح أو الكأس الكبير ملفوفاً بقماش ثمين ذى زخارف بديعة ويغطي العمامة ويتدلى على الجانبين و خلف الظهر[٨٦٤]، أما النساء الأثرياء فكن يضعن طرحة مرصعة ومزينة على رؤوسهن وعيونهن[٨٦٥] وارتدت المرأة حذاء في القدم أو خفاً لونه أحمر أو أبيض أو مذهب ومزين بأجمل وأروع الألوان البديعة. [٨٦٦]، واستكمالاً للزينة والجمال فقدكن يضعن الحلي في الرقبة

---

(861) Frescobaldi , A Visit to the Holy Places , p. 47 , 163 .

(862) Frescobaldi , A Visit to the Holy Places , p. 162 , Adler , Jewish Travelers , p. 168 , Souriano , Treaties on the holy Land, p. 203 , Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud , P. 56 .

(٨٦٣) الوزان، وصف أفريقيا، ص ٥٩٢ ؛

Frescobaldi , Ibid , p. 47 , Adler , Ibid , p. 158 , Baumgarten , The Travel of Martin Baumgarten p. 479 , Harff , The Pilgrimage of Arnold Von Harff , p. .124

(٨٦٤) ابن الحاج، المدخل الي الشرع الشريف، ج١، ص ٢٤٢ ؛

Casola , Pilgrimage to Jerusalem , p. 257 , Harff , Ibid , Adler , Ibid , Baumgarten , op.cit , 479 .

(865) Frescobaldi , op.cit , p. 47.

(٨٦٦) فارتيما، رحلة فارتيما، ص ٣١ ؛

والآذن وأحيانا كن يثقبن الأذن عدة ثقوب تصل ما بين ثمانية إلى عشرة ثقوب ويضعن فيها اللآلئ المختلفة ورسموا بالوشم على الجلد بالألوان الجميلة والتي لا يمكن إزالتها إلا بعد ستة شهور [٨٦٧]، كما اعتادت المرأة على صبغ الشفاه بالألوان الداكنة ووضع الحلي على الجبهة وفي ذراعها وضعت الأساور والخواتم المصنوعة من الذهب والفضة والحديد أو الجواهر القيمة غالية الثمن. [٨٦٨]، وليس أدل على حرص المرأة على العناية بنفسها وجسدها مما أورده الرحالة بيرو طافور حيث شاهد عدداً كبيراً من العبيد السود يسيرون في الشوارع وهم يصيحون من يريد الزيانة؟، ولما استفسر عن حقيقية ذلك قيل له إنهم يقومون بخدمة النساء اللائي يردن النظافة سراً في الحمامات[٨٦٩].

لم يقتصر الأمر على ذلك فحسب بل كانت المرأة في ذلك العصر تتمتع بحرية، حيث سمح لها بالخروج طوال اليوم للتنزه وتأجير الحمير والبغال من الشوارع وتتحرك بسهولة وتتزين وتتعطر وتذهب لزيارة أقاربها وأهلها وأصدقائها[٨٧٠]، وقد عاب ابن الحاج على خروج المرأة بصفة مستمرة إلى الأسواق وما يترتب على ذلك من مشكلًا كانت سببًا في وقوع الفاحشة، حيث كانت نساء القاهرة يركبن الدواب في الذهاب والعودة ويتعرض لهن المكاري ويلمسهن عند الركوب والنزول ويضع يده على أجسادهن وهن يضعن أيدهن على كتفه وأيدهن ومعاصمهن مكشوفة وتحادثنه كأنهن أزواجه[٨٧١]، كما جرت العادة أن تذهب النساء إلى القبور وتحمل معهن الرياحين والأزهار لوضعها حول القبور مساء يوم الخميس

Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud , P. 65 , See Also, Wolff , op.cit , p. 131 .

([867]) Adler , Jewish Travelers , p. 168 .

([868]) Baumgarten , The Travel of Martin Baumgarten , p. 479 .

([٨٦٩]) طافور، رحلة بيرو طافور، ص ٩٧.

([٨٧٠]) الوزان، وصف أفريقيا، ص ٥٩٢ ؛ ٥٧٧

Harff , The Pilgrimage of Arnold Von Harff , p. 123 , Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud , P. 211 .

([٨٧١]) ابن الحاج، المدخل الي الشرع الشريف، ج١، ص ٢٦٧.

أو الجمعة ظهراً[٨٧٢]، وكانت زيارة النساء للقبور أشنع وأعظم الأمور لأنها اشتملت على مفاسد عديدة فمنها مشيهن بالليل مع الرجال وكثرة الخلوات وكان فيها أماكن مهيأة لذلك ثم كشف وجوههن والتحدث مع الرجال الأجانب[٨٧٣]، كما اشتغلت بعض النساء العاملات بالتجارة، حيث ذهبن إلى الإسكندرية عن طريق رشيد ودمياط ثم إلى ميناء بولاق ومعهن السلع والبضائع[٨٧٤]. وهكذا كانت المرأة في العصر المملوكي تتمتع بميزات مكنتها من حرية الحركة والتنقل مما جعل ابن الحاج ينتقد خروجهن إلى القرافة والقبور ويستنكر مخالطة الرجال بالنساء عند القبور وكشف عوراتهن مثل اليد والمعصم.

كما وصف الرحالة فون هارف von harff نساء القاهرة بأنهن خليعات وتميزن بالمكر والخديعة والخروج طوال اليوم دون ضيق من زوجها، فتستطيع أن تذهب إلى أحد المماليك لقضاء بعض الوقت والتنزه معه في حين يرسل زوجها من يراقبها ويتجسس عليها وقد شاهد ذلك بنفسه[٨٧٥]، وذلك ما أكده أيضاً فيلكس فابري Filx Fabri عن نساء بيت المقدس، حيث رأي أنهن داعرات ويتحركن بخلاعة ويشاغلن الأجانب والمسافرين في الشوارع والأسواق وهم على أسطح المنازل ويوجهن إليهم الإشارات [٨٧٦]، والحديث هنا عن المرأة يدفعنا نحو الإشارة إلي ظاهرة هامة وهي الخيانة الزوجية كما ذكر الرحالة وفي القصص الشعبية أيضًا إلا أنها في أحيانٍ أخري تشير الي مدى إخلاص المرأة لزوجها وتفانيها في حبه وخدمته[٨٧٧] وأيد ذلك الرحالة دومينكو تريفزاني فذكر أن الزوجة تقوم بشئون بيتها ثم ترتدي الثياب

([872]) Souriano, Treaties on the holy Land , p. 193 .

([٨٧٣]) ابن الحاج، المدخل الي الشرع الشريف، ج١، ص ٢٦٨.

([874]) Souriano,op.cit, p.203 , Frescobaldi , A Visit to the Holy Places, pp. 45 -46, See Also , Wolff , How Many Miles to Babylon ? p.143.

([875]) Harff , op.cit , p.123 .

([876]) Fabri , the wandering , vol 1 part 1, p. 263 .

([٨٧٧]) أحمد عبد الرازق، المرأة في مصر المملوكية، الهيئة العامة، ١٩٩٩م، ص ١٢٢- ١٢٥.

الحريرية الرقيقة المذهبة لتظهر أمام زوجها في صورة فاتنة ورائعة[٨٧٨]، كما انتقد مؤرخو ذلك العصر اهتمام المرأة بجمالها وملابسها فقد كانت ترتدي طرحة على رأسها بلغ ثمن الواحدة منها ١٠ آلاف دينار، وصوروا لنا ما كن يتحلين به من خلاخيل ذهبية وأطواق مرصعة بالجواهر وثياب واسعة الأكمام[٨٧٩]، ولكن تلك الثياب قد حدث عليها تغيرات مستمرة فتجد ابن الحاج يعيب على المرأة تلك البدعة التي أحدثتها في ثيابها حيث جعلها ضيقة وقصيرة[٨٨٠]، كما عاب المقريزى علي النساء إفراطهن في طول الثياب واتساعها والإفراط في طول الأكمام واتساعها[٨٨١]، ومهما حدث من تغييرات في ملابس المرأة إلا أن تلك التغيرات والأوامر والقيود التي فرضت عليهن لتغيير ملابسهن لم تنفذ طوال العصر وغالباً ما كانت النساء تعود إلى ارتداء ذلك النوع من القمصان الطويلة ذات الأكمام الواسعة.

كانت هناك فوارق بين المرأة المسلمة والذمية في عصر المماليك، فقد كانت المسيحيات يلبسن أزراً ذات لون أزرق واليهوديات ذات لون أصفر والسامريات ذات لون أحمر، وإذا ارتدت المسلمة الأقمشة الفاخرة القطنية والحريرية، فكانت الذمية ترتدي الملابس الكتانية، ذلك علاوة على أن خف الذمية يجب أن يكون لونين مختلفين[٨٨٢]، على أنه من الواضح أن تلك القيود لم تفرض علي الذميات إلا في أوقات الأزمات فقط، ولم تؤكد المصادر الإسلامية المعاصرة التزام الذميات بتلك القيود بل على العكس هناك ما يشير إلى تمتعهن بلبس أفخر الثياب وأجمل الأزياء دون التفرقة بينهن وبين المسلمات، حسبما يقول ابن الأخوة إذا خرجن من دورهن ومشين في الطرقات فلا يكدن يعرفن، وكذلك في الحمامات وربما جلست النصرانية في أعلى الحمام والمسلمات دونها وخرجن إلى الأسواق وجلسن عند التجار فيكرمهن

([878]) Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud , p. 211.

([٨٧٩]) المقريزي، السلوك، ح٢ ق٣، ص ٨١٠ ؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٩، ص ١٧٦.

([٨٨٠]) ابن الحاج، المدخل الي الشرع الشريف، ج ١، ص ٢٤١.

([٨٨١]) المقريزي، السلوك، ج٢ ق٣، ص ٨٨٤.

([٨٨٢]) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٣، ص ٣٤٣؛ ٣٨٤ ؛ ابن الأخوة، معالم القربة، ص ٤٢.

بما يشاهدون من حسن زينتهن فلا يدرون أنهن ذميات[٨٨٣]، كما لدينا صور قدمها لنا الرحالة فون هارف von harff يصور فيها ملابس المرأة المسلمة والذمية حيث لا تجد اختلافًا واضحاً بينهنما[٨٨٤].

أما ملابس الرجال فقد اهتم الرحالة الأوربيون بوصف ملابسهم بصفة عامة دون تحديد ملابس كل طائفة من الخدم والفلاحين والمماليك والعامة بل كان وصفهم نابعاً من رؤيتهم للرجال في الشوارع والأسواق. كان الرجال يرتدون ملابس قطنية بيضاء وناعمة تشبه الحرير في ملمسها، والبعض ارتدي ملابس حريرية بيضاء وهي ملابس واسعة وطويلة وغير مبهرجة، وأحياناً تكون من التيل الرقيق أو الحرير المبطن بالقطن والقليل منهم ارتدى الصوف[٨٨٥]، وعلى رؤوسهم عمامة ملفوفة حول الرأس مختلفة الارتفاع مصنوعة من الكتان الأبيض[٨٨٦]، ويرجع اختلاف ارتفاع العمامة وحجمها وفقاً لمكانة الشخص الاجتماعي، فقد كان الفقهاء والعلماء يلبسون العمائم المرتفعة، ومن أقل منهم في المكانة يرتدي أقل ارتفاعاً وهكذا، وكانت العمامة على شكل أسطواني وعليها شرائط مزركشة، وأحياناً كانوا لا يرتدون أحذية في القدم ويسيرون حفاة، والقليل منهم أرتدي أحذية خشبية وجوارب وعند البرد الشديد ارتدى معظم الرجال معاطف من جلود الحيوانات مبطنة من الداخل بالفراء[٨٨٧]، أما السراويل فكانت تصنع من التيل وغالباً لا يرتدونها [٨٨٨]، وكان الفرق الوحيد بين المسلمين وبين أهل الذمة الرجال هو لون العمامة فقط حيث ارتدى

---

(٨٨٣) ابن الأخوة، معالم القربة، ص ٤٣.

(٨٨٤) انظر الصورة رقم (٣) Harff ,The Pilgrimage of Arnold Von Harff , p. 125.

(885) Frescobaldi , A Visit to the Holy Places , pp.166 – 167 , Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud , p. 56 .

(886) Frescobaldi, A Visit to the Holy Places, p. 47, 167,Langnon, Le Saint Voyage , p. 43.

(887) Baumgarten , The Travel of Martin Baumgarten, p. 479.

(888) Adler , Jewish Travelers , p. 158 , Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud , p. 56 .

المسلمون عمامة بيضاء ناصعة، واليهود عمامة صفراء، والمسيحيون عمامة زرقاء، والسامريون عمامة حمراء[٨٨٩].

اعتادت الغالبية العظمى من الناس في العصر المملوكي على شراء الأطعمة المطهية من الأسواق، حيث انتشرت محلات الطعام في كل مكان و كانت مفتوحة ليلاً ونهاراً وقدمت أجمل وأشهى الأطعمة، ولا يمكن أن تطهي الزوجة في منزلها بل يذهب زوجها أو الخادم إلي محلات الطباخين والشوائين لشراء ما يلزمهم من الطعام الجاهز يومياً[٨٩٠]، وعادة ما قام الناس بشراء الطعام وكانوا يأكلونه في الشارع وهم جالسون على السجاد على شكل دائرة[٨٩١]، ولا يعدون الطعام في منازلهم إلا في المناسبات الخاصة وإعداد الولائم، وكانوا يستخدمون الطوب الآجر الذي يحترق بشدة لدرجة الاحمرار ولكنه لا ينتج دخان وأحياناً يصنعون النار من روث الحيوانات مع القش[٨٩٢]، وعلى الرغم من ذلك فإن بيلوتي الكريتي piloti de Crete ذكر أن طعام أهل القاهرة كان سيئاً للغاية وكانوا لا يجيدون الطهي داخل منازلهم[٨٩٣]، وكان الطعام يباع في الشوارع مثل الخبز والماء واللحوم المطبوخة وكل أنواع الفاكهة لأن الشرقيين لا يعدون الطعام في منازلهم ولا شيئاً من ضروريات الحياة ولكنهم يرسلون من يشتري لهم كل شيء يريدونه، وفي كل أنحاء المدينة توجد المطابخ التي تعد وتجهز فيها أنواع متنوعة من الطعام، وتميز الشرقيون بالطبخ الجيد والنظافة وكانوا يعطون بعض الرجال الطعام يبيعونه في الشوارع ويحملون فوق

---

(889) Dopp , Le Caire , tome , 24 , p. 129 , Harff , The Pilgrimage of Arnold Von Harff, p. 113.(٢) انظر الصورة رقم .

(٨٩٠) الوزان، وصف أفريقيا، ص ٥٩٢ ؛

Frescobaldi, A Visit to the Holy Places , p. 49 , Adler , op.cit , p. 228 , Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud , p.60 .

(٨٩١) فارتيما، ص ٣١ ؛ Frescobaldi , Ibid

(892) Souriano , Treaties on the holy Land , p. 192.

(893) Dopp , Le Egypte , p. 108.

رؤوسهم منضدة صغيرة وعليها موقد لتسخين الطعام وماء وملح وكل شيء ضروري ويجلس الناس علي مقاعد في الشوارع ينتظرون الباعة[٨٩٤].

أما عن الأعراب فقد جرت العادة أنهم كانوا يعدون مأدبة عظيمة في حالة المناسبات الخاصة ويصنعون الخبز في الرماد ويضعون اللحم النيئ على صخرة فوقه و صخرة أخرى أسفله ويتركونه يسخن تحت أشعة الشمس حتى يجف، كما كانوا يأكلون الأعشاب وجذور النباتات ويشربون ألبان البغال والجمال أو يصطادون الأسماك ويضعونها على الصخور الملتهبة الحارقة[٨٩٥].

وعند تناول الطعام فإنهم كانوا يجلسون على سجادة على الأرض فليس لديهم منضدة ولا كراسي في منازلهم ويجلسون في دائرة، ويأكلون بسرعة ولا يشربون الماء أثناء تناول الطعام بل بعده وخاصة ماء الورد، ولا يستخدمون الملاعق أو الشوك أو السكاكين بل يأكلون بأيديهم[٨٩٦]، أما مائدة الطعام فاحتوت على أنواع مختلفة من الأطعمة مثل، كميات كبيرة من الحليب ومن الجبن المملح ويتناولون اللبن الحامض في كل أنواع الحساء لديهم، كما اعتمدوا على اللحوم وكميات كبيرة من الخضراوات[٨٩٧].

أما الشراب فكان ماء نهر النيل النقي الجيد المذاق ذو الرائحة الطيبة، فكانوا يملئون الجرار والأواني باستمرار في منازلهم، وقد اعتادوا على تنقية المياه من الشوائب، وذلك بوضع حفنة من ثمار اللوز في الماء بعد أن يدلكوها ويحكوها معاً في اتجاه معاكس، ثم تدعك في شجرة النخيل فتعمل على تنقية المياه من الشوائب في خلال ثلاث ساعات[٨٩٨].

اهتم الناس في تلك العصور اهتماما كبيراً **بإعداد أماكن للنوم في**

([894]) Frescobaldi , op.cit , p. 143 .

([895]) Fabri , the wandering , vol 2 part 2 , pp. 481 – 484 .

([896]) Casola , Pilgrimage to Jerusalem , p. 256 , Baumgarten , The Travel of Martin Baumgarten , pp.478-479 .

([897]) الوزان، وصف أفريقيا، ص ٥٦٤ ؛ ٥٩٤.

([898]) Wolff , How Many Miles? , p. 104.

منازلهم فصنعوا الأسرة من جريد النخيل ووضعوا عليها وسائد مريحة محشوة بالقطن[٨٩٩]، ولكنهم بصفة عامة سواء في مصر أو الشام ناموا داخل المنزل أو خارجه على المصاطب أو حتى فوق المنزل على الأسطح المنبسطة، وخاصة في فصل الصيف للاستمتاع بالهواء وعند شروق الشمس ينزلون أسفل المنزل ويجلسون في الظل[٩٠٠].

جرت العادة عند وفاة أحد الأشخاص أن يحمل المتوفى في تابوت وتشيع جنازته من منزلة إلى المسجد، حيث يقوم أحد رجال الدين بإلباس المتوفى كفناً ويصلون عليه في المسجد، ثم تخرج الجنازة من المسجد إلى مثواه ويسير خلفه الرجال والنساء وهم يصيحون ويبكون وينوحون على المتوفى[٩٠١]، وفي بيت لحم شاهد الرحالة فيلكس فابري filx fabri جنازة امرأة مسلمة يحملها الرجال على أكتافهم ويسير وراءها الرجال والنساء وهم يضعون أيديهم متشابكة على رؤوسهم ويصيحون ويبكون بشدة[٩٠٢]، ولو كان المتوفى غنياً أو من الأعيان فإنهم كانوا يرسلون بعد دفنه الكثير من الحمالين ومعهم الأغنام لذبحها وتوزيعها على الفقراء والمحتاجين في القرافة[٩٠٣]، كما كان من عادة الناس عند زيارة القبور أن تذهب النساء إلى المقابر حاملة معهن الرياحين والزهور ويقمن بوضعها حول القبور مساء

- هذا الوصف لتنقية مياه النيل من الشوائب يقترب إلي حد ما من قول المقريزي عن استخدام نوي المشمش ليكون بمثابة مصفاة للمياه في قاع الإناء الفخارى، أنظر: المقريزي، الخطط، ج١، ص١٠٤.

([٨٩٩]) سعيد عاشور، المجتمع المصري، ص ١١٦.

([900]) Harff , The Pilgrimage of Arnold Von Harff , p. 112 , Dopp , Le Egypte , p. 108 , Fabri , the wandering , vol 1 part1 , p. 261 .

([٩٠١]) ابن الحاج، المدخل الي الشرع الشريف، ج ٣، ص ٢٥٥ -٢٥٦ ؛ العيني، إنباء الغمر، ج٢، ص ٢٤٩ ؛ ابن تغري بردي، حوادث الدهور، حررها وليام بيير، كاليفورنيا، ١٩٣٠ م، ج٢، ص ٣٣٤ ؛

Harff , op.cit , p. 112

([902]) Fabri , the wandering , vol 1 part 2 , p. 604 .

([903]) Frescobaldi , A Visit to the Holy Places, p. 41.

يوم الخميس أو ظهر يوم الجمعة[٩٠٤]، كما اعتادوا أن يأتي أقارب المتوفى إلى القبور أيام الجمع والأعياد ويجتمعون معاً ويوزعون الطعام على الفقراء الذين يأتون من كل الأنحاء يسارعون للحصول على قسط من الطعام والمال[٩٠٥]، كما ذكر بوم جارتن أن سكان مدينة فوه كانوا في أحزانهم يلطخون أنفسهم بالروث والقذارة عندما يبكون على موتاهم[٩٠٦].

بنى المسلمون مدافن خاصة بهم في مصر سميت القرافة، وكان لأهل مصر والقاهرة قرافتان الأولى على سطح جبل المقطم يقال لها القرافة الصغرى والثانية في مصر يقال لها القرافة الكبرى[٩٠٧]، ولم يقتصر استخدام القرافة في تلك العصور على دفن الموتى وتشييد المقابر، بل أقيمت فيها البيوت والمساجد المزخرفة وفيها مصابيح مشتعلة [٩٠٨] وقد امتدح الرحالة وصف القرافة الصغرى ونظامها والحياة فيها، حيث بنيت فيها أحواش عالية ومنخفضة يوضع فيها الموتى وكل فرد له حوش مستقل، وفي الأحواش المنخفضة يدفنون الموتى، و الأحواش العليا عبارة عن مساكن يجلس فيها أقارب المتوفى عند زيارة المقابر[٩٠٩]، ولتلك القبور أبنية عالية عليها قباب جليلة ومزينة من الداخل بنقوش متنوعة وبرسوم وأرضيتها مغطاة بالرخام[٩١٠]، أما ابن بطوطة فقد وصفها بأنها عظيمة الشأن ويبنون فيها القباب الحسنة ويجعلون عليها الحيطان فتكون كالدور ويبنون بها البيوت ويرتبون القراء يقرءون ليلاً ونهاراً بالأصوات الحسنة ومنهم من يبني الزاوية والمدرسة إلى جانب

---

(٩٠٤) ابن الحاج، المدخل الي الشرع الشريف، ج ٣، ص ٢٧٨ ؛ Dopp , Le Egypte , p. 35

(905) Souriano , Treaties on the holy Land , pp. 192 193 , Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud , p. 51

(906) Baumgarten , The Travel of Martin Baumgarten , p. 440 .

(٩٠٧) المقريزي، الخطط، ج٤، ص ٣١٧.

(٩٠٨) نفسه، ص ٣١٩ - ٣٢٠ ؛ Harff ,The Pilgrimage of Arnold Von Harff, , p. 118.

(909) Dopp , Le Egypte , pp. 34 -35 .

(٩١٠) الوزان، وصف أفريقيا، ص ٥٨٥ -٥٧٦.

التربة.[٩١١]، وفي بيت المقدس بظاهر المدينة مقابر للمسلمين عند البوابة الذهبية[٩١٢] وفي أرسوف مقابر لليهود وأسفل جبل الكرمل وفي بيت المقدس مقابر أخرى لهم عند انحدار جبل الزيتون وجبل المعبد[٩١٣].

- **المنشـآت الاجتماعية:**
- **الحمـامات العامـة:**

انتشر بناء الحمامات في مصر والشام والعالم الإسلامي بصورة واضحة، وذلك لأن الحمامات لها أهمية خاصة في الحياة الإسلامية، حيث تعد مكاناً للطهارة والنظافة، وقد اهتم المسلمون بالنظافة التي هي أساس العبادات، كما كانت تلك الحمامات مكاناً لاجتماع النساء والرجال كلا منهما على حدا لمناقشة بعض الأمور الحياتية الهامة وتداول الأخبار ونشرها، ولذا يعتبر الحمام مصدراً لنقل المعلومات، وتلك الحمامات كانت ذات ضرورة ملحة في الشرق بسبب الجو الحار في معظم بلاده، ولذلك يستخدمها كل طبقات السكان من الجنسين كما نجد أن عدد الحمامات العامة وروعتها وجمالها المعماري تتجاوز حدود ما رواه الرحالة.

وقد قصدها الناس من مختلف الطبقات للاستحمام لكون الناس لم تألف تلك الأوقات الاستحمام في منازلهم[٩١٤] وذكر ابن الحاج أن الواحد يشتري الدار أو يبنيها نحو الألف ولا يعمل بها موضعاً للغسل أو الوضوء[٩١٥]، كما اقتضت الشريعة الإسلامية ألا يدخل الرجال المسجد إلا بعد الاغتسال والوضوء، ولذلك كان يذهب أغلبهم إلى الحمامات، وكانت هناك حمامات تابعة للمساجد يدخلها كثيراً من الأغنياء، أما الفقراء فيغتسلون في الترع والقنوات[٩١٦] وقد اعتبر البعض أن كثرة الحمامات في

---

(٩١١) ابن بطوطة، تحفة النظار، ص ٣٩.

(٩١٢) الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢، ص ٦٣ ؛ Fabri , the wandering , vol 1 part 2 p. 460.

(913) Adler , Jewish Travelers , p. 144 , 241 .

(٩١٤) رئيسة عبد الفتاح، نابلس في العصر المملوكي، فلسطين ١٩٩٩ م، ص ١٦٢ ؛ محمد عدنان، بحث في تاريخ بلاد الشام، عمان، ١٩٩٠ م ؛ ص ١٣٩.

(٩١٥) ابن الحاج، المدخل إلي الشرع الشريف، ج ٢، ص ١٧٠.

(916) Langnon , Le Saint Voyage , p. 60 .

المدن من مظاهر الترف والغنى وما يتبعه ذلك من الترفيه والتنعيم والرفاهية والراحة.

وقد شاهد بعض الرحالة تلك الحمامات في مصر والشام، وذكروا أنه ليس ثمة حمامات تشبه حمامات مصر في جودتها ونظافتها ونظامها المعماري المشيد بفن هندسي بالغ الجودة [٩١٧]، حتى إن بعضهم قد أحصى عدد حمامات القاهرة فذكر ابن عبد الظاهر أن بالقاهرة عام ٦٨٥ هـ / ١٢٨٦ م حوالي ٨٠ حماماً [٩١٨]، وفي عام ٩١٨ هـ / ١٥١٢ م ذكر جان تينو jean Thenaud أن بها حوالي ١٠٠ ألف حمام [٩١٩]، أما الرحالة يوحنا الذي زار مصر في العصر العثماني ذكر أن في القاهرة حوالي ١٠٠ حمام فقط للرجال والنساء[٩٢٠].

كانت النساء في تلك الحمامات تقمن بالاغتسال وإزالة الشعر والنظافة العامة، كما قمن بالتخضيب بالحناء والزينة وتخرج من الحمام كأنها عروس مزينة عيونها بالكحل وفي يديها وقدميها الحناء ومرتدية أجمل الملابس وواضعة أطيب العطور[٩٢١]، أما الرجال فذكر فون برندباخ von breydenpach أن الرجال المسلمين كانوا يستمتعون بشدة بدخول تلك الحمامات، حيث وجد بها أشخاص متميزين قاموا بتدليك الجسم وتجديد النشاط مع وجود الماء الدافئ والبخار الذي يساعد على تفتح مسام الجلد[٩٢٢]، وذلك التدليك يتم بطريقة الثني والفرد للجسم لعدة مرات حتى تلين الأعضاء وبذلك يصبح المرء أكثر رشاقة وحيوية[٩٢٣].

---

(٩١٧) البغدادي، رحلة البغدادي، ص ١١٤ ؛ الوزان، وصف أفريقيا، ص ٥٨٠ ؛ Adler ,Jewish Travelers , p. 168.

(٩١٨) ابن عبد الظاهر، الروضة البهية الزاهرة في خطط القاهرة المعزية، تحقيق ايمن فؤاد السيد، الدار العربية للكتاب، القاهرة، ١٩٩٦م، ص ١٠٣.

(919) Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud , p. 36.

(920) Wolff , How Many Miles to Babylon ? p. 131.

(921) Wolff , How Many Miles to Babylon ? p. 131.

(٩٢٢) جومار، وصف القلعة، ص ٨٥ ؛

Larrivaz , Le Saints Peregrinations de Bernard , p. 61.

(923) Harff , The Pilgrimage of Arnold Von Harff , p. 114.

وعن فائدة الحمام أيضًا ذكر فليكس فابري filx Fabri أن الخادم في الحمام يقوم بتدليك المرء ودهنه بالزيت لأنهم يعالجون ضعف الأطراف في الحمام، فإذا كان الإنسان يشعر بألم ما في أي موضع يقوم الخادم بتدليك مكان الألم ويضغط بشدة عليه حتى يتعافى من وجعه أو يسكن بعض الألم ولذلك فمن يعاني من آلام في فمه أو ساقه أو رقبته ويدلكها الخادم فإنها تزيل التقلص بسرعة، و إذا كان الشخص يعاني من ضيق في التنفس كان الخادم يقوم بأخذ المريض ويمدده على بلاط الحمام في الوسط إما على ظهره أو بطنه أو جنبه، ثم يجلس الخادم فوقه ويتولى معالجة موضع الألم بلطف، وذلك الأمر قد أدهش الرحالة، ووجد أنها أسهل وأفضل طريقة للعلاج، وتعجب كثير منهم ا مما يحدث في الحمام حيث وجده أحسن مكان لعلاج كثير من الأمراض في وقت ضئيل جداً وأفضل من الذهاب إلى الينابيع الحارة التي يتكلف الوصول إليها الجهد والوقت والمال الكثير[٩٢٤].

اعتنت السلطات المملوكية بأمر تلك الحمامات وتنظيم الدخول فيها وتوفير سبل الأمان والراحة، ومن ثم كان هناك موظف يشرف على تلك الحمامات سمى المحتسب وكان من ضمن مهامه أن يأمر ضامن الحمام أي الشخص المسئول عن نظافته بكنسه وغسله بالماء الطاهر غير ماء الغسيل كل يوم مرات، ويدلك البلاط بالأشياء الخشنة لئلا يتعلق به الأوساخ والصابون فينزلق الناس عليه، وكذلك يغسل الخزانة من القاذورات المجتمعة فيها، وكذلك الفساقي والقدور من الأوساخ المجتمعة من المجاري كل شهر مرة لأنها إذا تركت أكثر من ذلك تغير الماء فيها من ناحية الطعم والرائحة، كما يقوم بتبخير الحمام بالفحم واللبان في كل يوم مرتين، وخاصة عندما يكنسه ويغسله، كما يأمر ضامن الحمام أيضاً أن يجعل عنده مآزر يؤجرها، أو يعيرها لمن يحتاجها فإن الغرباء والفقراء يحتاجون إلى ذلك[٩٢٥].

أما في بلاد الشام فلم يذكر المؤرخون المعاصرون أو الرحالة في العصور الوسطى أعداد الحمامات في بلاد الشام ولا أسماءها، ولكن ابن شاهين

([924]) Fabri , the wandering , vol 2 part 2 , p. 440.

([٩٢٥]) ابن الأخوة، معالم القربة، ص ١٥٥ -١٥٦.

ذكر حمامات القدس فقال: إنه كان بها كثير من الحمامات وبها مدارس كثيرة وخانات وحمامات وعمائر حسنة، وعن دمشق قال: إن بها مدارس وأماكن مباركة وشوارع وأسواق وحمامات وبساتين وعمائر تحير الواصف[٩٢٦]، أما العمري فذكر أنه في القدس في أوائل العصر المملوكي أيام تولي الأمير تنكز نائباً للشام عام ٧١٠ هـ / ١٣١٠ م قام ببناء حمامين جليلين بها وكان الناس في أشد الحاجة إليهما لأنه لم يكن بها حمامات جيدة[٩٢٧]، أحدهما كان يوجد قي باب القطانين أحد أبواب المسجد الأقصى والمعروف بالحمام الجديد[٩٢٨]، وفي نابلس التي اشتهرت بصناعة الصابون ساهم ذلك في كثرة الحمامات بها وجودتها وما تقدمه من خدمات للناس لذلك لا تندهش عندما يصفها شيخ الربوة بأن حمامات نابلس طيبة[٩٢٩].

كما كان هناك تخصص في الحمامات بمعنى أنه هناك حمام للرجال وآخر للنساء، مثل حمام الساباط في القاهرة وكان في القصر الصغير وسمي بعد ذلك أيام المقريزى باسم حمام المارستان المنصوري، حيث كان يدخله الرجال بالنهار وتعقبهم النساء فيما بعد[٩٣٠]، وكذلك حمام خوند بجوار رحبة خوند وكان يدخله عامة الرجال في أوائل النهار ثم تعقبهم النساء بعد إلى أن هدمه الأمير صلاح الدين محمد بأمر السلطان وذلك في رجب عام ٨٢٤ هـ، وأدخله في داره[٩٣١]، وكذلك يوضح فيلكس فابري filx fabri أن في بيت المقدس لا يجتمع النساء والرجال معا في حمام واحد بل لكل منهما حمام خاص به ولا يسمحون لليهود بدخوله[٩٣٢].

أما عن وصف الحمامات العامة في ذلك العصر وتصميمها، فلم تحتفظ المصادر المملوكية المعاصرة إلا بالقليل عن ذلك الوصف ويمكن وصفها

---

(٩٢٦) ابن شاهين زبدة كشف المالك، ص ٢٣، ١٥٤.

(٩٢٧) العمري، مسالك الأبصار، ج٢، ص ٢١٠.

(٩٢٨) الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢، ص ٣٥.

(٩٢٩) رئيسة عبد الفتاح، المرجع السابق، ص ١٦٣.

(٩٣٠) المقريزي، الخطط، ج٣، ص ١٢٩ ؛ ١٣١.

(٩٣١) المقريزي، الخطط، ج ٣، ص ١٣١.

(932) Fabri , the wandering , vol 2 part 2 , p. 441 .

وصفاً بسيطاً من خلال نصوص الرحالة العرب أو الأجانب الذين اهتموا بالسرد والتفصيل لكل الأمور والمشاهدات العجيبة والجميلة التي رأوها. فالحمام عبارة عن بناء تتوسط واجهته بوابة ضيقة ذات زخارف أو أحياناً بوابتان إحداهما للرجال والأخرى للنساء والأبواب مطعمة بالعاج والأبنوس ومزينة بالرسوم والزخارف، وداخل الحمام عدة غرف تتراوح من ست إلى سبع غرف دون فراش، ولكنها مبلطة الأرضية والجدران بالرخام الأبيض الناعم ومن ضمن الغرف غرفة ساخنة[٩٣٣]، وتلك الغرف تشبه المقاصير يستحم فيها الأشخاص عراة، ثم يرتدون ملابسهم بعد الاستحمام وتوجد الفوط النظيفة الموضوعة في تلك المقاصير حيث يلف الناس أجسامهم[٩٣٤]، وأمامها بناء مقبب محيط بها مثل رواق للسير والانتقال والغرفة نفسها تشبه برجاً مربعاً وفوقها قبة ليس لها سقف بل فتحات كبيرة مغلقة بالزجاج الملون لينفذ منها الضوء القليل الباهت، ولكنه كاف للإضاءة وفي أحد الأماكن يوجد موقد نار تحت البلاط، ومن خلاله يسخن رخام البلاط الأرضي، ويحمل الماء الذي يجري خلال قنوات محفورة في الغرفة كلها تحدث السخونة، ومن جانب آخر تجري مياه باردة وتسمى تلك القنوات بالنافورات، وتملئ بالماء الساخن عبر أنابيب تصب فيها وهكذا فإن البخار الناتج عن المياه الساخنة يدفئ الحجرة [٩٣٥].

وصف الرحالة المسلم البغدادي موقد النار في الحمام بأنه يسمى بيت النار وعليه قبة مفتوحة بحيث يصل إليها لسان النار، ويصف على أفاريزها أربعة قدور رصاص وتتصل تلك القدور قرب أعاليها بمجار من أنابيب فيدخل الماء من مجرى البئر إلى فسقية عظيمة، ثم منها إلى القدر الأول فيكون فيها بارداً، ثم يجرى منها إلى الثاني فيسخن قليلاً، ثم إلى الثالث فيسخن أكثر، ثم إلى الرابعة فيزداد سخونة، ثم يخرج إلى مجاري الحمام فلا يزال الماء جارياً وحاراً بأيسر كلفة وأهون سعي

([933]) Harff , The Pilgrimage of Arnold Von Harff , p. 114 , Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud , p. 36.

([934]) Prescott , once to sinai , pp. 31-32 .

([935]) Fabri , the wandering , vol 2part 2 , pp. 437 – 439.

وأقصر وقت وكانوا يفرشون أرضية الموقد بنحو خمسين إردباً ملحاً لأن الملح من خصائصه حفظ الحرارة[٩٣٦].

بالإضافة إلى الحمامات العامة هناك حمامات طبيعية بها مياه معدنية تساعد على العلاج من الأمراض والأوجاع، وأهمها ما يوجد في أرض الشام مثل بحيرة طبرية حيث فيها عيون ملحة حارة، وقد بنيت عليها حمامات ولا تحتاج إلى وقود وتجري فيها المياه الساخنة ليلاً ونهاراً وبقربها حمام يغتسل فيه المرضى[٩٣٧]، وعن الأهمية والفائدة الصحية لحمام طبرية قال الهروي إنها من عجائب الدنيا وهي عمارة قديمة وعبارة عن هيكل يخرج الماء من صوره، وقد كان يخرج الماء من اثني عشر موضعاً وكل عين مخصوصة بمرض معين إذا اغتسل منها صاحب المرض برىء منه والماء أشد حرارة في الصيف، وأصفي ما يكون وأطيب رائحة وذلك الموضع يقصده أصحاب الأمراض والعاهات والزمني والرياح فيغتسلون فيه وعيونه تصب في موطن كبير حسن يسبح الناس فيه[٩٣٨]، وكذلك عين سلوان فمن يستحم من ماء تلك العين يشفى مما ألم به من الأمراض المزمنة[٩٣٩]، وهكذا كان الحمام في العصور الوسطى ذات طابع خاص في الشكل المعماري الهندسي وفي أهميته وفائدته الصحية والعلاجية وكذلك أهميته الاجتماعية كمقر لاجتماع الناس ونقل الأخبار وسرد القصص والحكايات.

- **الأسبلة:**

كان الاهتمام ببناء الأسبلة عادة قديمة عند كل الملوك والسلاطين منذ القدم،

---

(٩٣٦) البغدادي، رحلة البغدادي، ص ١١٥ -١١٦.

(٩٣٧) العمري، مسالك الأبصار، ج٢، ص ٢٠٧ ؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص ٧٥ ؛ بورخارد، وصف الأراضي المقدسة، ص ٩١ ؛

dler , Jewish Travlers, p. 146 , Luodolph , Description of the Holy land , p. 127 .

(٩٣٨) أبي الحسن علي بن أبي بكر الهروي، الإشارات لمعرفة الزيارات، تحقيق علي عمر، القاهرة، ٢٠٠٢م، ص ٢٨، زكريا بن محمد، آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت، ب. ت، ص ١٦٣.

(٩٣٩) خسرو، سفرنامة، ص ٦٨.

ولكن عند المسلمين أخذت طابعاً مميزاً بحيث سارع أهل الخير والأغنياء للتنافس فيما بينهم لعمل الخير وذلك النوع من المنشآت يعتبر عملاً من أعمال الخير، ولذلك سارع السلاطين والأمراء والحكام على إنشاء الأسبلة في الأزقة والطرقات وفي الأماكن العامة حتى يعم الخير، وبذلك ينالون الأجر والثواب، ونظراً لأهمية ودور تلك المنشآت المعمارية في الحياة العامة فنادراً ما نجد مدينة إسلامية تخلوا من سبيل أو عدة أسبله.، وتعتبر الأسبلة من المنشآت الاجتماعية غير الخاصة بالمسافرين والتجار، وكان الغرض منها تيسير الحصول على ماء الشرب، وهي من المنشئات والأعمال الخيرية الجاري ثوابها، وقد انتشرت في الأقطار العربية والإسلامية مثل بلاد العرب ومكة والمدينة ومصر ودمشق، وقد يبنون بجوارها بيوتاً يأوي إليها المارة وعابرو السبيل، وأول بناء للأسبلة في مصر في العصر المملوكي كان ابتداء من القرن السادس الهجري – الثاني عشر الميلادي وكان معظمها من أعمال الأمراء والسلاطين ونسائهم كأنها كفارة عن الذنوب والآثام[٩٤٠]، كما بنى الأغنياء تلك الأسبلة صدقة جارية لأنفسهم أو لأبنائهم أو لأحد أقاربهم المتوفين وتحتها صهريج ملئ بالماء يستخدم للشرب، وكان يسمح للمارة من كل الجنسيات والملل من المسيحيين واليهود والأجانب باستعمالها ولا ينقطع الماء عنها أبداً [٩٤١].

أما عن الأسبلة في بلاد الشام فلم يتناول الرحالة الأجانب ذكر تلك المنشئات على الرغم من كثرتها أيضاً، كما كانت في مصر، ولذلك يمكن عرض توضيحي لتلك الأسبلة في بلاد الشام اعتماداً على ما ذكرته المصادر الإسلامية المعاصرة والمراجع العربية. فقد أهتم السلاطين المماليك بإنشاء الأسبلة في مدن بلاد الشام الرئيسية وأهمها، مدينة بيت المقدس في أماكن عديدة وذلك نظراً لقلة المياه فكانت المدينة بحاجة أساسية وضرورية لمياه الشرب ولذلك اهتم السلاطين المماليك بتوصيل المياه

---

(٩٤٠) علي باشا مبارك، الخطط التوفيقية، ج٦، ص ١٧٣.

(941)Casola , Pilgrimage to Jerusalem , p. 248 , Baumgarten , The Travel of Martin Baumgarten , p. 442 , Harff , The Pilgrimage of Arnold Von Harff , p. 111.

إلى السكان، ولذلك قام السلطان برسباي بتجديد سبيل شعلان وهو السبيل الذي بناه الملك المعظم عيسى الأيوبي عام ٦١٣هـ / ١٢١٦ م ونجد ذلك مذكوراً على لوحة السبيل جدد ذلك السبيل والمصلى والمحراب العبد الفقير لله شاهين ناظر الحرمين أيام مولانا الملك الأشرف برسباي خلد الله ملكه بتاريخ شهر رمضان المعظم عام ٨٣٢ / ١٤٢٨ م [٩٤٢].

أما الأسبلة الأخرى الحديثة في بيت المقدس فقد وصفها المؤرخ مجير الدين الحنبلي بأن السلطان الأشرف في عام ٨٦٠ هـ / ١٤٥٥ م أنشأ السبيل القائم بين مسجد الصخرة والمطهرة والمعروف بسبيل قايتباي، حيث يوجد فوق البئر المقابل لدرج الصخرة الغربي، وكان قديماً على البئر المذكورة وقبة مبنية بالأحجار كغيره من الآبار الموجودة بالمسجد فأزيلت تلك القبة وبنى السبيل المستجد وفرش أرضيته بالرخام [٩٤٣].

يمكن تقديم وصف مبسط للسبيل كما ذكره الدكتور سعيد عاشور من خلال دراسة أثرية معمارية للسبيل في العصر المملوكي حيث لا توجد مصادر إسلامية معاصرة تصف بدقة السبيل وملحقاته وما يوجد داخله من أدوات ومعدات، السبيل عبارة عن مبنى يحتوي على طابقين، الأول عبارة عن بئر محفورة في الأرض بها ماء الأمطار أو ماء النيل يعلوه غطاء أو سقف من الرخام، أما الطابق الثاني فيرتفع عن سطح الأرض وتسمى حجرة التسبيل أو المزملة لتوزيع الماء على الراغبين ويقوم المزملاتي (الشخص المعين من قبل منشئ السبيل لرفع المياه من فتحة البئر) برفع الماء من البئر بواسطة قنوات تجرى تحت البلاط المصنوع من الحجر الصلب وينتهي الماء إلى فتحات معدة لرفع الماء، وكان الماء يرفع من تلك الفتحات بواسطة كيزان مربوطة بسلاسل مثبته بقضبان النوافذ، أما طريقة التشغيل فكانت تتم بواسطة بكرة فوق البئر محمولة على خشبه مربوط بها حبل، وكان بطرف الحبل

([٩٤٢]) عارف العارف، تاريخ القدس، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥١ م، ص ٨٤.
([٩٤٣]) الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢، ص ٦٦١.

سطل يرفع به المزملاتي الماء إلى القنوات الموجودة تحت بلاط المزملة فيجرى إلى النوافذ القائمة عند فتحات القنوات، وكان طالب الماء يصعد على سلالم موجودة أسفل كل نافذة إلى حيث يجد الماء فيحصل على حاجته بالكوز [٩٤٤].

كانت تلك النوافذ مصنوعة من النحاس، وقد أبدع الفنان المسلم في أشكال وزخارف تلك النوافذ، وتمثل نافذة سبيل السلطان قايتباي ٨٧٩ هـ / ١٤٧٤ م من العصر المملوكي النمط التقليدي لتلك النوافذ والذي ظل مستمراً حتى فترة القرن الثانى عشر الهجري / الثامن عشر الميلادي في مصر وتبدو تلك النوافذ على هيئة مربعات تحتل كامل النافذة حتى الجزء السفلي منها، بالإضافة إلى وظيفة السبيل في توفير المياه للمارة فقد كان له وظيفة أخرى مهمة خاصة في مصر وهي وظيفة التعليم، حيث كان يلحق بالسبيل وفي الجزء العلوي منه والذي يمثل الطابق الثالث في السبيل مكتب أو كتاب ليتعلم فيه أبناء المسلمين مبادئ القراءة والكتابة وتحفيظ القرآن الكريم، وقد استمر ذلك التقليد أي الجمع بين وظيفة السقاية والتعلم في بناء الأسبلة منذ فترة الحكم المملوكي وهو الشيء الذي يعطي السبيل المصري خصوصية وتفرد عن الأسبلة الأخرى التي أنشئت في معظم مدن العالم الإسلامي[٩٤٥]، كما وصف لنا جومار وصفاً عاماً آخر للسبيل حيث ذكر أنه تكون من ثلاث طوابق أحدها الواقع تحت سطح الأرض عبارة عن خزان واسع يصب فيه الماء، ويرفع الطابق العلوي عدد من الأعمدة الرخامية الجيدة النحت وزخارف على الحجر والبرونز، وكان يتزود منها الناس بالمياه التي يحتاجون إليها مجاناً في كل المواسم وينقل إليها الماء بعناء شديد من فرع النيل حيث يوجد في الشوارع جمال مخصصة لذلك، أما الطابق الثالث فسمى الكتاب المجاني، واقتصر على تعليم الأطفال القراءة والكتابة والحساب، ويصرف عليه من ريع مؤسسة السبيل ويتم التعليم فيه عن طريق تلقين التلاميذ في وقت واحد القراءة والكتابة[٩٤٦].

([٩٤٤]) سعيد عاشور،" بعض أضواء جديدة علي مدينة القدس"، بحث المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، ابريل ١٩٨٠ م، ص ٢٧ -٧.

([٩٤٥]) أحمد عبد الجواد، >الأسبلة قطرات من ماء ولمسات من جمال<، مجلة العربي، العدد ٥٦١، أغسطس ٢٠٠٥ م، ص ١٢٩ -١٣٠.

([٩٤٦]) جومار، وصف القلعة، ص ٨٥ ؛ ٢٠٨ – ٢٠٩.

المنازل في مصر والشام:

اهتم السلاطين المماليك اهتماما خاصاً بقصورهم ومنازلهم ولم يقتصر ذلك على العناية بهندسة البيوت وتنظيمها ونظافتها وجمالها الخارجي وإنما امتدت إلى زخرفتها واستخدام أنواع مختلفة من الأحجار والأعمدة والفسيفساء الملونة وأنواع الرخام المختلف في الشكل واللون و الحجم، وما بداخله من التحف والصناعات المعدنية والخزفية والخشبية، كما أهتم العامة اهتماما بالغاً بتشييد المنازل وتأثيثها وتزويدها بكل وسائل الراحة والترفيه حتى يتسنى لهم الحياة والعيش فيها بهدوء وأمان، وقد صممت تلك المنازل وفقاً للظروف المناخية للبلاد،كما تفاوتت تلك المنازل من حيث البناء والأبهة تفاوتاً يتناسب مع المكانة الاجتماعية لأصحابها فنجد منازل الأغنياء والأمراء تختلف عن منازل العامة وعن منازل التجار والأعيان.

بدت المنازل المصرية في مظهرها الخارجي صغيرة وبسيطة، ولكنها من الداخل كانت مرتبة غاية في الترتيب ومقسمة إلى غرف تدل على براعة في الهندسة المعمارية[٩٤٧]، وقال عنها الرحالة المسلم عبد اللطيف البغدادي إن أبنية مصر فيها هندسة بارعة وترتيب حتى إنهم قلما يتركون مكاناً خالياً فيها ودورهم جميلة ورائعة المنظر وعندما يريد شخص أن يبنى ربعاً أو داراً أو قيساريةً كان يحضر المهندس ويفوض إليه العمل [٩٤٨] وذلك دليل واضح على مدى اهتمام واعتناء المصريين ببناء المنازل وحسن ترتيبها وتنظيمها وبنائها على أساس متين.

وقد وصف بوم جارتن قصر المترجم الذي زاره في القاهرة عام ٩١٣ هـ/ ١٥٠٧ م وأقام عنده خلال فترة تواجده فيها حيث ذكر أنه قصر عظيم به ساحة مستديرة وبها عدد من الغرف وفي الساحة يوجد سجاد غالي الثمن وعليه مائدة عظيمة وعدد كبير من الأطباق بلغ عدها إلى ٢٦٠ طبقاً من الطعام المنوع والجيد من اللحوم والفاكهة. [٩٤٩]، كما وصف برندباخ von breydenpach الدار التي أقام فيها بأنها عبارة عن قصر مزخرف ببذخ بالرسومات والجدران مزخرفة بالألوان الجميلة

([947]) Larrivaz, Le Saints Peregrinations de Bernard, p. 55.

([٩٤٨]) البغدادي، رحلة البغدادي، ص ١١٤ -١١٥.

([949]) Baumgarten , The Travel of Martin Baumgarten , p. 442.

وأبوابها ذات مقابض مصنوعة من العاج، ذلك بالإضافة إلى الأثاث والفراش والبسط الفاخرة في المنزل ونافورة ماء في فناء الدار والتي تحيط بها الأشجار العالية المزدهرة. [٩٥٠]،وهكذا تميزت منازل مصر بأنها جميلة وضخمة وعالية وعامرة بالسكان[٩٥١].

ذكر بعض الرحالة الآخرين أن منازل مصر أغلبها كانت ذات أسقف منبسطة وشرفاتها واسعة ولها شبابيك ونوافذ ذات قضبان حديدية ينفذ من خلالها الهواء العليل، وبما أن درجة الحرارة عالية في البلاد فكان يرش المنزل من الداخل ثلاث مرات يومياً وإذا لم يتم رشها بالماء لا يمكن العيش فيها بسبب الحرارة العالية. [٩٥٢]، وكان يبنى في بعض المنازل بها مداخن عالية مفتوحة من أسفل لتجلب شيئاً من البرودة، ولولا ذلك الأمر لتعذر العيش فيها نظراً لاستحالة احتمال السخونة. [٩٥٣]، وبعض المنازل كانت ترصف من الداخل بالحجارة، وبها أشجار متعددة وفي وسطها حوض ملئ بالماء وكل منزل به حوضين (خزانان) واحد للماء الجديد من النيل والآخر للماء القديم[٩٥٤].

كانت المنازل تبنى من الأخشاب أو الطوب أو مواد أخرى مثل الحصى. [٩٥٥]،كما كانت منازل مصر تبنى بالحجر والكلس الأبيض فتبدو المنازل بيضاء اللون باطناً وظاهراً كأنها حمامة بيضاء[٩٥٦]، وكان النصف السفلي من منازل القاهرة تبنى

([950]) Larrivaz , Le Saints Peregrinations de Bernard , p. 46 .

([951]) Adler , Jewish Travelers , p. 222 , Frescobaldi , A Visit to the Holy Places , p. 107.

([952]) Ghistele , Voyage en Egypte , p. 20 , Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud, p. 213 , Langnon , le saint voyage , p. 59 .

([٩٥٣]) الوزان، وصف أفريقيا، ص ٥٦٨.

([٩٥٤]) نفسه، ص ٥٧٢ ؛ العمري، مسالك الأبصار، ج٢، ص ١٥٢ ؛ Adler , op.cit , p. 160.

([٩٥٥]) السيوطي، حسن المحاضرة، ج٢، ص ٢٩٥ ؛

Langnon, le saint voyage , p. 59 , Potvin , Oeuvres de Ghillebert , p.115 , Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud , p. 30 .

([٩٥٦]) العمري، مسالك الأبصار، ج٢، ص ١٤٩.

من الطوب الآجر المصنوع من طمي نهر النيل المجفف في الشمس والنصف العلوي من ألواح الخشب المغطى بالطين والجير (الكلس)، وتلك المنازل بدون سقف لأنها لا تمطر في الشتاء أو الصيف، كما أنهم يحمون أنفسهم من أشعة الشمس الحارقة بطريقتين الأولى عند منتصف النهار ومع شدة الحرارة وسقوط أشعة الشمس داخل المنزل يضعون ستارة تغطي السقف المفتوح حتى الغروب، والطريقة الثانية تستخدم خلال عشرة شهور عند ما تهب الرياح القادمة من البحر فيضعون ما يشبه السقف الخشبي ارتفاعه عشرة أذرع فوق المنزل لحمايتهم من الرياح وبدون ذلك لا يستطيعون العيش فيه[٩٥٧]، ومن الداخل فالمنزل مزين بطريقة جميلة جداً بالصور ومبلط بالرخام والأحجار، وكل يوم يتم تنظيفه ومسحه والأرضية مبلطة بالرخام الملون ومكونة من رسومات وأشكال جميلة من زهور ورسوم تاريخية بالإضافة إلى وجود سجاجيد أو أقمشة حريرية يجلسون عليها[٩٥٨].

كانت الفكرة الأساسية التي حرص عليها الناس في هندسة بيوتهم وعند تصميمها وبنائها، هي عدم جعل أي فرد بالخارج يرى شيئاً داخل المنزل، وذلك بعمل المشربيات على النوافذ، وبذلك يمكن للجالس في بيته أن يرى الناس بالشارع من حيث لا يرونه [٩٥٩]، وهكذا كانت أغلب منازل القاهرة مكونة من طابقين أو ثلاثة وأحياناً أربعة في الأحياء المزدحمة وهي مبنية من الطوب وذات لون داكن من الخارج، أما من الداخل فهي مبطنة بطبقة لطيفة من الجبس ذات لون أبيض ناصع أو مبطنة بالجير والشبابيك والشرفات مغلفة دائماً بسياج ضيق من الخشب المخروط (الأرابيسك) الذي يسمح بدخول الضوء والهواء العليل[٩٦٠].

([957]) Souriano , Treaties on the holy Land ,p. 191.

([958]) Harff , The Pilgrimage of Arnold Von Harff , p. 112 , Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud ,p. 213 .

([٩٥٩]) سعيد عاشور، المجتمع المصري، ص ١١٣ ؛ ستانلي لين بول، سيرة القاهرة، القاهرة، ١٩٥٦، ص ٢٨ -٢٩.

([٩٦٠]) جومار، وصف قلعة الجبل، ص ٨٩.

أما منازل القرى فكانت مختلفة تماماً في الشكل والبناء عن منازل المدن، حيث كانت عديدة ومأهولة بالسكان وبعضها منخفض وبعضها عالٍ ومغطاة بالطين[٩٦١]، وبعض المنازل في الضواحي كانت مبنية بالطوب الآجر، وجزء منها مغطى لحماية المنزل من أشعة الشمس الحارقة، والسقف كان من القش والخشب ليصبح السقف صلباً، وهناك منازل أخرى تغطى بفروع الأشجار والخشب[٩٦٢].

اهتم أهل الشام ببناء المنازل أيضاً والدور الفخمة الراقية، ولكنها أيضاً اختلفت من مكان لآخر، ففي مدينة نابلس كانت المنازل تتكون من عدة طوابق ومغطاة بالرخام، وتحتوي داخلها على غرف كثيرة وقاعات، وحدائق تجلب الراحة النفسية والهدوء للأعصاب حيث كانت الحدائق واسعة ونظيفة الجوانب والأطراف وفيها حوض ماء يجري وإيوان عال جيد البناء، كما أنها كانت تشبه الحصون ومبنية بناء جيد ومكسوة بالجص وكأنها دمشق الصغرى كما ورد على لسان الرحالة أوليا جلبي، وفي بعض مدن الشام يبنى السقف من الطين والتبن فيكون ضعيفاً ويميل إلى السقوط عند حدوث انهيار أو زلزال[٩٦٣]، وذكر البعض أن منازل الشرق بصفة عامة جميلة وكبيرة وذات أسقف مسطحة ومرصوفة[٩٦٤] لدرجة أنك تستطيع أن تمشي على أسطح تلك المنازل على طول امتدادها ويمكن للجيران أن يمشوا فوق أسطح تلك المنازل أثناء قيامهم بزيارة أحد جيرانهم، كما لم يكن لتلك المنازل أبواب كبيرة تطل على الشارع فيما عدا بعض البيوت القليلة، ولذلك كانت الأبواب منخفضة وفي كثير

([961]) Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud , p. 179, Baumgarten , The Travel of Martin Baumgarten , p. 439 .

([٩٦٢]) ابن سعيد المغربي، النجوم الزاهرة في حلي القاهرة، ج٢، ص ٢١ ؛ Baumgarten , Ibid , p. 443

([963])Souriano , Treaties on the holy Land , p. 39 , See Also , Prescott , Jerusalem Journey , p. 174.

([964]) Fabri , The Wandering , vol 1 part 1 , p. 261 , Casola , Pilgrimage to Jerusalem, p. 241 , Theodrich , Guide to the Holy Land p. 6 .

من المنازل فإن المدخل ينتهي عادة بقاعة فسيحة [٩٦٥]، وفي بيت المقدس اتفق معظم الرحالة والمؤرخين المعاصرين على أن منازلها كانت مبنية بالأحجار المتنوعة، ولم تعتمد على الخشب إلا قليلاً نظراً لقلة وجود الأخشاب بها لذلك لا يوجد بها أعمال خشبية واضحة كما في منازل مصر[٩٦٦]، وفي عكا تميزت البيوت بأن لها ارتفاعاً واحداً وكلها متشابهة البناء من الحجارة منحوتة ومزينة بشكل رائع ونوافذ خارجية ورسوم رائعة[٩٦٧]، ورغم أن بعض الرحالة قد رأي أن منازل الشام سيئة من الخارج إلا أنهم قد اندهشوا من جمالها وروعتها الداخلية والاهتمام بزينتها بالفسيفساء والمرمر والرخام وبها أعداد كبيرة من النافورات والمجاري المائية[٩٦٨].

نهاية القول يمكن وصف منازل الشام بصفة عامة بأنها مبنية من الأحجار، وليس بها أدوار عديدة بل لا يزيد عن اثنين أحدهما فوق الآخر، ولا يوجد بها مساكن خشبية لأن الخشب غالي الثمن ويباع بالوزن، وفي كل منزل توجد مساحة يحيط بها خمس أو ست غرف، ولا يوجد في تلك المدن الشامية آبار للمياه الطازجة، ولذلك يوجد في كل منزل بئر أو خزان يحفظ فيه مياه الأمطار لاستخدامها وقت الحاجة. [٩٦٩]، أما الجدران فكانوا يتفننون في إضفاء نوع من البذخ والترف عليها حيث يلصقون عليها شرائح من الرخام ويدهنون الشقوق بالذهب والنقوش الزاهية والرسوم الإسلامية ذات المناظر الرائعة[٩٧٠].

([965]) Theodrich , Ibid , See Also, Ray Johan Collection of Curious travels & Voyages , trans by Nicholas Staphorst , London , 1693 , p.22.

([٩٦٦]) الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢، ص ٥٥ ؛

Adler,Jewish Travelers , p. 236 , Casola , op.cit , pp. 250 -251 , See Also, Peters , Jerusalem The Holy City , U.S.A , 1985 , p. 392.

([967]) Luodolph , op.cit , p. 51.

([٩٦٨]) خسرو، سفرنامة، ص ٦٥ -٦٦ ؛ فارتيما، رحلة فارتيما، ص ٢٩ ؛

Nicolo , A voyage Beyond the seas, p. 77 , Frescobaldi , A Visit to the Holy Places, p. 183 , Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud ,p.114.

([969]) Peters , Jerusalem The Holy City , p. 492 .

([970]) (ay Johan , op.cit , p. 22.

- **مشاهدات اجتماعية:**

شاهد الرحالة الغربيون مدى اهتمام السكان في الدولة المملوكية **بالترفيه والبحث عن وسائل للتسلية والتنزه** وخاصة أهل مصر، حيث غلبت عليهم روح المرح والتسلية والفرح حتى في الأوقات الصعبة، ولم يفقد المصريون روح المرح والدعابة في كل وقت ولا شك أن الترفيه والتسلية أمر ضروري لكل إنسان، وربما كان الترفيه وسيلة لتحمل المصاعب والتغلب على المشاكل، ولكل شعب وسائل للترفيه خاصة به تتفق مع ظروفه المادية والاجتماعية وتتلاءم مع عاداته وتقاليده وقد عرف الناس والسلاطين أنواعاً وطرقاً متعددةً للتسلية والتمتع بالحياة كلٌ وفقاً لإمكانياته وحياته.

فقد روى الرحالة فيلكس فابري filx fabri والذي زار مدينة القاهرة عام٨٨٨هـ/ ١٤٨٣ م أن منزل كبير التراجمة الذي أقام عنده كان يوجد به مجموعة من الطيور والحيوانات النادرة الأليفة والمتوحشة مثل، النعام والببغاوات والأسود والدببة في فناء المنزل،كما قدم بعض المصريين إلى داخل المنزل وقدموا بعض الألعاب المسلية والحيل مستخدمين الدببة والزراف والأسود في تأدية بعض الألعاب المتنوعة كأنهم سيرك حديث [٩٧١]، كما حدثنا الرحالة عن رؤيته لبعض الحيوانات في القاهرة قرب القلعة والتي اعتبروها غريبة وعجيبة في ذلك العصر لأنهم لم يعتادوا على رؤيتها في بلادهم مثل الزراف والفيلة كما كانوا يضعون تلك الحيوانات في مكان محدد يشبه حديقة الحيوان وهناك شخص مسئول عن رعايتها ونظافتها وتدريبها للقيام ببعض الألعاب المسلية والممتعة، أما الرحالة الألماني السير لانجلير seigneur de angleur فقد أندهش عند رؤيته لستة أفيال مختلفة في الحجم، وكذلك شاهد خمس زرافات غريبة الشكل[٩٧٢].

يبدو أن تلك الحيوانات كانت متواجدة في مكان عام يشاهده الناس من

([971]) Margoliouth , Cairo , Jerusalem and Damacus , london , 1907 , p. 160.

([972]) Langnon ,Le saint Voyage , pp.61-63 , Dopp , Le Caire , tome 24 , p. 116.

المصريين أو الغرباء، فالرحالة بيرو طافور ذكر أنه عقب زيارته للأهرامات ذهب لمشاهدة المكان الذي كانوا يحتفظون فيه بالفيلة فقال: رأينا منها سبعة و لونها أسود وحجمها أكبر من حجم الجمل..... ويظهر أن تلك الحيوانات ذكية جداً فهي مدربة على القيام بالحيل والألعاب وتعتمد في بعض الأحيان علي ملء خراطيمها بالماء وترش به أي شخص أرادت، كما أنها تلعب بالرمح وتقذفه في الجو ثم تمسكه، كما تقوم بألعاب أخرى كثيرة، فإذا كان الجو حاراً أخذها القوم عند الفجر ودفعوها إلى النهر لتبرد وإلا عجزت عن كبح نفسها وجلدها سميك جداً، وإذا جرحت وضعوها حيث تشرق الشمس عليه فتبرأ في اليوم التالي، ويحمل سائقوها شوكة حديدية مثبتة إلى مدارة يضربونها بها خلف أذنيها ويوجهونها متي أرادوا ذلك[٩٧٣]، وقد اهتم الرحالة أيضًا بوصف تلك الحيوانات مثل الزراف والفيلة وصفاً دقيقاً من ناحية الشكل والحجم واللون وطريقتها في الأكل والشرب وأنواع الطعام التي تأكله ومعيشتها[٩٧٤]، وذلك يدل على دهشة وإعجاب الرحالة الأوربيين بتلك الحيوانات العجيبة التي لم يعرفوها ولم يشاهدوها من قبل في بلادهم أو في بلاد أخرى إلا في مصر والشام في ذلك العصر.

كذلك استخدم أهل القاهرة كثيراً من أنواع الحيوانات بعد تدريبها على الإتيان بكثير من الحركات والألعاب المسلية المضحكة وقد أشار إلي ذلك الرحالة المغربي العياشي الذي زار المدينة عام ٩٠٧ هـ/ ١٥٠١م ودون ما رآه خارج القلعة بقوله: وهناك خلق من المصريين يلعبون في سائر الأيام كأنواع المشعوذين وأصحاب القرود ومن ضاهاهم من أصحاب اللعب بأنواع الحيوانات كالدب والحمير والتيوس والكلاب ... وبالجملة فأهل مصر لهم ذكاء زايد وحيل غريبة قد سخر لهم أنواع الحيوانات فقليل من الحيوانات ما لا يوجد عندهم مسخراً[٩٧٥].

([٩٧٣]) بيرو طافور، رحلة طافور، ص ٧٢ -٧٣

([٩٧٤]) نفسه ؛ Frescobaldi , A Visit to the Holy Places , pp. 48 -49.

([٩٧٥]) علي السيد علي، "القاهرة في عيون الرحالة الأوربيين في القرنين ١٤، ١٥ "؛ مجلة الفكر العربي، العدد ١٣، ١٩٨٨ م، ص ٧٣.

تلك الحيوانات مثل الفيلة والزراف والدببة والأسود لم توجد أساساً في البيئة المصرية بل كانت تجلب من بلاد أفريقيا وآسيا فمثلاً، كان الفيل يؤتى به من بلاد النوبة بعد أن يقوم أهلها باصطياده ويحملونه في مركب إلى الديار المصرية ضمن الجزية التي يدفعها ملك النوبة للسلطان المملوكي وكانوا ينقلونه من بلاد الهند والسند وسرنديب والحبشة[٩٧٦]، أو يصل إلى مصر كهدايا من الملوك الآخرين، ففي عام ٦٦٥ هـ / ١٢٦٦م وصلت هدية نفيسة من صاحب اليمن إلى السلطان الظاهر بيبرس كان فيها حمار وحشي وفيل وأسود وخيول[٩٧٧]، وفي عام ٦٧٢ هـ / ٢٧٣ م وصلت هدية من ملك الحبشة عبارة عن سباع سود[٩٧٨]، كما أرسل صاحب دهلك عام ٧٩٥ هـ / ١٣٩٥م هدية تحتوي على فيل وزرافة. [٩٧٩]، أما في سنة ٩١٦ هـ / ١٥١٠م فقد حضر إلى السلطان فيل صغير من بلاد الحبشة فلما طلع إلى السلطان رجت القاهرة وكانت الأفيال قد انقطعت عن مصر نحواً من أربعين عاماً حتى نسيها الناس فصاروا يعجبون منه ثم حضر بعده فيل آخر وثالث[٩٨٠].

كانت ساحة الأزبكية مقراً للهو واللعب والتسلية، حيث كان يجتمع فيها سكان القاهرة بعد صلاة الجمعة والخطبة هذا بالإضافة إلى أنه كان يوجد بتلك الساحة الملاهي ومواخير النساء، وأجتمع فيها أيضاً العديد من المشعوذين الذين قاموا بترقيص الجمال والحمير والكلاب واستخدام العصافير للتسلية، كما كان فيها

([٩٧٦]) النويري، نهاية الإرب، ج٩، ص ٣٠٦ ؛ المقريزي، السلوك، ج٢ ق١، ص ١٠٧ ؛ ابن أيبك، كنز الدرر، ج٨، ص ١٨٥

([٩٧٧]). ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص ١٤١ ؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥، ص ٣١.

([٩٧٨]) ابن ايبك، كنز الدرر، ج٧، ص ١٧٥ ؛ المفضل بن أبي الفضائل، النهج السديد والدر الفريد، نشر Blauchet، ج٢، ١٩١٩ م، ص ٢٢٣

([٩٧٩]) الصيرفي، نزهة النفوس و الأبدان، ج١، ص ٣٦٢.

- دهلك: جزيرة في البحر الأحمر قرب الحبشة بينها وبين الحبشة مسيرة نصف يوم في البحر وطول هذة الجزيرة مسيرة يومين وحولها ٣٠٠ جزيرة معمورة بالمسلمين ومنها يحمل العبيد والإماء إلى سائر الافاق، انظر، الحميري، الروض المعطار، ص ٣٣٢.

([٩٨٠]) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص ١٨٧ -٢٠٦.

المتبارزون بالسيف والترس وبالعصا، وآخرون ينشدون أمجاد المعارك بين العرب والمصريين إثر فتح مصر[٩٨١].

كذلك حرص العامة أيضاً علي الخروج إلى المتنزهات والملاهي

وقضاء بعض الوقت وخاصة في فصل الصيف على نهر النيل حيث الحدائق والبرك والمتنزهات، وأهم تلك الأماكن على نهر النيل هي المنطقة الواقعة بين بولاق ومصر العتيقة والتي تسمى جزيرة الروضة والتي وصفها ابن بطوطة بأنها مكان للنزهة والتفرج. [٩٨٢]، وتلك المنطقة كانت متنزهاً ملوكياً وسكناً للناس إلى أن تسلطن الصالح نجم الدين أيوب فأنشأ بالروضة قلعة وأتخذها مقراً، وعند حفر أساسها عام ٦٣٨ هـ /١٢٤٠م تهدمت بعض القصور والمساجد حولها، وترك الناس مساكنهم التي كانت بها، وتم بناء القلعة، وبعد زوال دولة الأيوبيين أمر السلطان أيبك بهدمها وطمع الأمراء في القلعة وأخذوا منها السقوف والأخشاب والرخام ثم، اهتم بها السلطان الظاهر بيبرس وفي عهد الملك المنصور قلاوون سمح للناس بالبناء فيها عام ٨٢٠ هـ / ١٤١٧م فبنيت الدور والمساكن الجميلة المطلة على النيل وعادت الروضة بعد هدم القلعة متنزهاً وشملت على دور كثيرة وبساتين عدة ومساجد[٩٨٣].

كان يذهب إليها سكان القاهرة للتمتع بالحدائق والأشجار والزهور والحشائش على شواطئ النيل، أو استئجار القوارب والمراكب المزينة والمزخرفة بأجمل وأبدع الزينة فضلاً عن الأعداد الكبيرة من التجار والأعيان الذين يخرجون في المواسم والمناسبات إلى النيل في قوارب تملأ سطح الماء[٩٨٤]، وفي منطقة بولاق أيضاً كان الناس يخرجون يوم السبت للتنزه والاستمتاع بأكل السمك في الهواء الطلق وسط الحدائق الطبيعية. [٩٨٥]، وقد تعجب الرحالة فريسكو بالدي frescobaldi من مبالغة

([٩٨١]). الوزان، وصف أفريقيا، ص ٥٨٣ ــ ٥٨٥.

([٩٨٢]) ابن بطوطة، تحفة النظار، ص ٤٠.

([٩٨٣]) السيوطي، حسن المحاضرة، ج ٢، ص ٣٣٩ -٣٤٢ ؛ المقريزي، الخطط، ج٣، ص ٢٩٧ - ٣٠٠.

([984]) Ghistele , Voyage en Egypte , pp. 66 , 75.

([985]) Wolff , How Many Miles, p. 142.

الناس في الترفيه والتنزه حيث كانوا يذهبون للتنزه كل يوم ومعهم الطعام والشراب وماء الورد وأشياء أخرى وتكلف ذلك حوالي ٤٠٠ دوكة ذهبية كل يوم[٩٨٦]، و رأى فون هارف حول الإسكندرية منازل صيفية بها العديد من الحدائق الرائعة وتنمو فيها أنواع عديدة من الفواكه الناضجة مثل البرتقال والليمون والبلح والتين والموز وأنواع أخرى طيبة المذاق ويعيش فيها الناس في فترة الصيف وفى وقت الأجازات وهي مبنية على الطراز المعماري الإسلامي[٩٨٧].

ولا يفوتنا هنا عند الحديث عن نهر النيل وشواطئه الرائعة أن نذكر ما جاء به الرحالة البلوي المغربي والذي أعجب كثيراً بالتنزه في نهر النيل وتمتع بمناظره الخلابة حيث قال ركبت بحر نيلها العذب في جملة وافرة من الصحب أخلاقهم أعذب من مائة وشمائلهم أرق من صفائه وسرنا في منتزهات تلك الأقطار الرفيعة إلى أن قضينا أجمل الأوقات وتمتعنا بتلك المنازل المليئة بالحدائق الغضة والنسيم المعطار ... وقد أحصيت المراكب الجارية في ذلك النيل فوصلت إلى أكثر من مائة ألف مركب ما عدا الزوارق الصغار للصيادين والركاب[٩٨٨].

أما الأطفال الصغار فيبدوا أنهم كانوا يستمتعون بطريقة مختلفة على شواطئ النيل، حيث روي فريسكو بالدي frescobaldi أنه شاهد عدداً كبيراً من الصبية من البنين والبنات واقفين على شاطئ النيل وهم شبه عراه يطلبون من كل من يبحر في النيل أن يلقي لهم بعض حبات الليمون في الماء حتى يتسابقوا في الغطس والسباحة للوصول إليها وكانت تلك هي طريقتهم لقضاء الوقت في المرح[٩٨٩].

كما كان الناس في مدينة بيت المقدس يتجولون غرب المدينة في الصيف حيث المساحات الفسيحة المزروعة بالحدائق والزهور فكان المكان منتزهاً عاماً لهم.

([986]) Frescobaldi , , A Visit to the Holy Places, p. 176.

([987]) Ibid, p. 96 , Harff , The Pilgrimage of Arnold Von Harff, p. 94 .

([٩٨٨]) البلوي، المغربي، تاج المفرق، ص ٢١٧ -٢١٨.

([989]) Frescobaldi , op.cit , p. 44 .

[٩٩٠]،كما ذكر الراهب بورخارد أن السهول الواقعة قرب مدينة فيدار في فلسطين كانت مقراً للتجمع والتنزه حيث اعتاد المسلمون الاجتماع حول عين فيالي الرائعة في الصيف بانتظام بسبب جمال المكان وكانوا يقومون بنصب الخيام ذات الألوان المختلفة. [٩٩١]، وذكر ميشولم Meshullam أيضاً أن اليهود كانوا يتنزهون عند سهل millo قرب بيت المقدس غرب وادي يوشفات حيث يتجولون ويتمتعون بالطبيعة[٩٩٢]، وروي بوم جارتن Baumgarten عن وسائل التسلية والترفيه في بيت المقدس أنه جرت العادة أن يخرج أبناء المدينة إلى بركة سلوان حيث مارسوا رياضة صيد الطيور وقد شاهد ذلك بنفسه ووجد أنهم يصطادونها بطريقة مختلفة عن بلاده في أوربا حيث أنهم لا يصطادون الطيور عن طريق الصقور والشاهين، ولكن عن طريق المياه التي تصب على الصخور، ولأن تلك البلاد جافة جداً وحارة ومياهها قليلة فإن الطيور تكون مستعدة للهبوط بسرعة على نبع ماء بسبب شدة العطش وقبل أن تصل الطيور إلى الماء للشرب تكون قد وقعت في أيديهم عن طريق الشراك والشباك المنصوبة والمعدة لها من أجل ذلك[٩٩٣].

انتشرت خارج مدينة دمشق أيضاً الحدائق والحقول البهيجة والمزروعة بكل أنواع الفواكه والزهور والمحاصيل وفيها تنزه الرجال والنساء وتمتعوا بالطبيعة الخلابة والهواء العليل[٩٩٤]، ومن متنزهات دمشق متنزه الجبهة وهي أرض مربعة مساحتها حوالي فدانين عليها سقائف تظلها بدون طين بين شجر الصفصاف والجوز ومفروشة بالحصير وتحيط بها جداول الماء من أربع جهات مع البرك والبحيرات، وبها حوانيت الطعام والشراب ومقاصف في خدمة الناس، وكذلك متنزه قطية على نهر بردي وبه أيضاً حوانيت الفرش والملابس والأطعمة، وكذلك

---

(٩٩٠) الحنبلي، الأنس الجليل، ج ٢، ص ٥٩ ؛ Souriano , Treaties on the holy Land , p. 42.

(٩٩١) بورخارد، وصف الأراضي المقدسة، ص ٧٤.

(992) Adler ,Jewish Travelers p. 192.

(993) Baumgarten , The Travel of Martin Baumgarten p. 463.

(994) Frescobaldi , A Visit to the Holy Places, p. 181.

متنزه البهنسية وهو روض يجمع بين الأشجار والفواكه والأزهار وبه عيون ماء جارية وبه سوق وحمام الزمرد، وكان مقصداً للرؤساء والأعيان وغيرهم[٩٩٥]، وهكذا تميز أهل دمشق بالميل نحو اللعب واللهو وخاصة يوم السبت حيث لا يبقي السيد ولا العبد ولا الجارية إلا وخرجوا للتسلية والترفيه، ومع بداية اليوم يجتمع الجميع، أما كبار رجال الدولة والأعيان فكانوا يمشون في البساتين ويقضون أوقاتهم في القصور والأماكن الجميلة، أما سائر الناس فإلي الميدان الأخضر المحاط بالزرع والنباتات الخضراء صيفا وشتاء وفيه الجداول المائية ويظلون علي تلك الحال حتى نهاية اليوم[٩٩٦].

ومن المشاهدات الاجتماعية الأخرى التي ذكرها بعض الرحالة **طرق العلاج لبعض الأمراض** فمنها ما هو نافع ومفيد ومنها ما هو خرافة ولا يتناسب مع الطب والعلم وذلك وفقاً لطبيعة الشعب في ذلك العصر، فذكر الرحالة بيلوتى الكريتي Piloti de Crete **أن ماء النيل** في حد ذاته يعتبر علاجاً قوياً لكثير من الأمراض وهو الطريقة المفيدة للحماية والوقاية عامة حيث إن نقاءه ومذاقه يساعد على هضم الطعام داخل المعدة وتجعل المرء مفتوح الشهية ولم يسبق أن شعر أحد من قبل بالآلام من جراء شربه حتى أن هناك بعض الناس يأتون إلى مصر خصيصاً لأجل شرب ماء النيل حتى يتم شفاؤهم من الأمراض[٩٩٧].

تعرض المسافرون في صحراء سيناء وغزة لخطرالحشرات أهمها **حشرة تسمى قملة فرعون** وهي حشرة سامة يبلغ طولها ضعف طول الذبابة ولونها أحمر. [٩٩٨]، وتلدغ الشخص وتسبب ورماً مريعاً وتقيحاً في الجلد[٩٩٩]، وكان العلاج الوحيد

([٩٩٥]) أبي البقاء محمد عبد الله محمد البدري المصري الدمشقي، نزهة الأنام في محاسن الشام، القاهرة، ١٣٤١ هـ، ص ٧٧ – ٨٠ ؛ انظر أيضًا، عبد القادر الريحاوي، مدينة دمشق و تراثها، دمشق، ١٩٦٩م، ص ٧٥.

([٩٩٦]) القزويني، آثار البلاد، ص ١٩١.

([997]) Dopp , Le Egypte , p. 7.

([998]) Adler , Jewish Traveler , p. 178.

([999]) Adler , Jewish Traveler, p. 186 , Ghistele, Voyage en Egypte, p. 11 .

لتلك الأورام هو استخدام عصير الليمون مكان الورم، وقد نصح المصريون كل من يسافر في الصحراء باستخدامه[١٠٠٠]، في حين اعتمد فون هارف على عصير التفاح لعلاج لدغة قملة فرعون[١٠٠١].

استخدم البلسم (البلسان) في علاج مرضى العيون، حيث كان يوضع فيها أربع نقط أو خمس، كما استخدم في الحفاظ على أجساد القديسين لأنه جرى دهنهم بالبلسم، وكذلك في شفاء الجروح الجديدة فإذا مسحت بنقطة بلسم ووضع على ريشة يعود على الفور الجلد سليماً، وساعد كذلك في علاج الكسور والتئام الجروح بسرعة من الداخل وهو مفيد للحفاظ علي اللحوم حتى لا تفسد[١٠٠٢]، وأحيانا استخدم البلسم في تحنيط الجثث وعلاج بعض الجروح، وكذلك استخدمه الصيادلة، كما كان له وظيفة دينية حيث استخدم في تصنيع الزيت المقدس وفي التعميد لدى الأقباط ولذلك اعتبر من الكنوز الملكية وقام السلطان بنفسه بتوزيعه وتحديد سعره[١٠٠٣]، كما استخدم المسلمون دهان البلسان في علاج كثير من الأمراض مثل اضطرابات الجهاز التنفسي وأمراض الأنف واللمباجو وآلام المفاصل، بينما استخدمه الغربيون على نطاق واسع في علاج الصداع والتسمم وآلام الأسنان، ولذلك فإن كل جزء من ذلك النبات ذو قيمة عالية وفائدة كبيرة ولذلك أيضاً فهو غالى الثمن[١٠٠٤].

فضلاً عن الفائدة العلاجية من مخلفات التماسيح، والتي ذكرها فيلكس فابري Felix fabri فقال إنه كان يصنع منه كريم للوجه من روث التمساح والذي استخدمته النساء بكثرة لإزالة التجاعيد بالوجه وتحسين البشرة كذلك استخدم جلده في أغراض عديدة ولذلك كان الجلد غالي الثمن[١٠٠٥]، كذلك ذكر المقريزي بعض

([1000]) Adler , Ibid , Ghistel , Ibid , Souriano , Treaties on the holy Land, p. 186 .

([1001]) Harff , The Pilgrimage of Arnold Von Harf , p. 184.

([1002])Luodolph, Description of the Holy land , p. 70 .

([1003]) Dopp , Le Egypte , pp. 31-32 .

([1004]) Prescott , Once to sinai , p. 120.

([1005]) Fabri , Voyage en Egypte , tome 3 , p. 940 .

الاستخدامات الطبية التي كانت معروفة وشائعة في ذلك العصر حيث قال وإذا عض التمساح إنساناً فوضع على العضة شحم التمساح برئ وشفي من ساعته ومرارته يكحل بها للبياض في العين فيذهبه وكبده يبخر بها المجنون فيبرأ وذيل التمساح يزيل البياض من العين الحديث والقديم وإن قلعت عيناه وهو حي وعلق على من به جذام أوقفه... وشحمه إذا أذيب بدهن ورد نفع من وجع الصلب والكليتين وشحمه إذا قطر بعد أن يذاب في الأذن الوجعة نفعها وإذا أدمن في تقطيره في الأذن نفع من الصم وإذا دهن به صاحب حمى الربع سكتت عنه[١٠٠٦].

وهناك خرافات قديمة فعلها الناس اعتقاداً في أهميتها من الناحية العلاجية، حيث كان يقوم المسيحيون الشرقيون والمسلمون بقطع أجزاء من جبل الصلب والصخور الأخرى من أجل العلاج والدواء، حيث قالوا أنه لو كان الشخص مريضاً بالحمى يمكن أن يشفى منها بشرب الخمر والماء مع قطعة من الصخور ومن عنده صداع يمكن أن يحلق شعر رأسه ويضعه حارس الدير على المكان الذي وضع عليه الصلب وسوف يشفى، وعندما يعاني الشخص من ألم الأسنان يستخدم الحجارة ويضع بينها شعر ذقنه، ولذلك رأي الرحالة فابري Fabri خصلات كثيرة من الشعر بين الشقوق والتصدعات في الصخور. [١٠٠٧] كما روي سوريانو Souriano أنه كانت توجد بداخلها قطع من الحجر أو الرمل وتلك الحجارة كانت تسمى أحجار الحمل حيث كانت المرأة التي لا يستمر حملها ويحدث لها إجهاض مستمر يجب عليها أن تحمل تلك الأحجار وسوف يستمر حملها ويؤكد سوريانو Souriano أنه قد جرب تلك البدعة والخرافة وقد نجحت عندما حضرت إليه سيدة أجنبية وكانت دائمة الإجهاض ومؤمنة ومخلصة لجماعة الرهبان الفرنسيسكان وقد حملت تلك الأحجار واستمر حملها وأنجبت الكثير من الأطفال بنات وبنين، كذلك روي أن تلك الأحجار لها تأثير على نمو الأشجار فهي إذا وضعت فوق الشجرة فلا يسقط تمرها وإذا كانت الشجرة غير مثمرة أثمرت وازدهرت[١٠٠٨].

([١٠٠٦]) المقريزي، الخطط، ج١، ص ١٠٧ -١٠٨.

([1007]) Fabri ,The Wandering , vol 1 part 2 , p. 363.

([1008]) Souriano , Treaties on the holy Land , p. 233 .

- **التعليم:**

كان التعليم في الشرق الإسلامي بصفة أساسية يعتمد على تعلم وتدبر آيات القرآن الكريم والعلوم الدينية والفقهية، وكان الأطفال الصغار يذهبون إلى المدارس الملحقة بالمساجد والتي عرفت في ذلك العصر باسم الكتاتيب، وذلك لتعلم القراءة والكتابة والقرآن الكريم، وقد شاهد الرحالة فيلكس فابرى filx fabri المدرسة الأشرفية التي بنيت بجوار المسجد الأقصى، وفى ذلك الوقت كان العمال والبناءون والنجارون يعملون فيها ويقومون بتزيينها من الداخل والخارج ويضعون بها الرخام الملون، ولذلك لم يسمح لأحد بدخولها ولكن فابري fabri استطاع الاقتراب قليلا وشاهد المدرسة ومن وصفه ندرك أن سقف المدرسة كان مرصعا بالذهب الثمين الملون والخشب اللامع المزين برقائق الذهب فأصبحت القبة التي تتوج المبنى كالجوهرة وكأنها إحدى الجواهر الثلاثة للحرم [١٠٠٩]، كما سمع الأطفال وهم يتعلمون ويدرسون القرآن الكريم فقال: بينما كنت نازلاً من جبل صهيون في طريقي إلى الكنيسة للصلاة فسمعت أولاداً يقرؤون بصوت مرتفع، وهم جالسون في صفوف على الأرض ويرددون نغمة واحدة وكلمات محددة ويهزون رؤوسهم للأمام والخلف، وتلك الكلمات هي أساس عقيدتهم وهي أول شيء يتعلمه الطفل المسلم وقد استطعت أن أحفظ تلك الكلمات التي رددوها مع النغمة وقد نظم تلك الكلمات على شكل نوتة موسيقية[١٠١٠]، تلك المدرسة الأشرافية السلطانية تنسب إلى السلطان الأشرف قايتباي، وسبب بنائها أن الأمير حسن الظاهر كان قد بنى المدرسة القديمة للظاهر خشقدم وبعد وفاته أهداها إلى السلطان الأشرف قايتباي، وعندما قدم إلى بيت المقدس لم تعجبه فأمر بهدمها وقام بتوسيعها من جديد عام ٨٨٧ هـ / ١٤٨٢ م وعمل ظاهرها بالرصاص المحكم وصارت جوهرة ثالثة[١٠١١].

([1009]) Prescott , Jerusalem Journey , pp. 176 -177 , Peters , op.cit , pp. 413 - 415.

([1010]) Fabri , the wandering , vol 1 part 2 , p. 396 .

([١٠١١]) الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢، ص ٣٥.

أما بالنسبة للتعليم عند أهل الذمة من اليهود والنصارى فإن المعلومات قليلة في تلك الفترة ولذا لا يمكن رسم صورة واضحة عن هذا الموضوع ولكن من المحتمل أن التعليم لديهم كان معتمداً على الكتاتيب أو المكاتب ومن الطبيعي أن يتعلم الطفل المبادئ الأساسية في الديانة وبعض القصص الديني عن الأنبياء والقديسين ومبادئ اللغة العربية والحساب التى تفوق فيها النصارى مما جعل المسلمين يرسلون أولادهم ليتعلموا الحساب عند المدرسين النصارى [١٠١٢]،كما وجد لليهود مدارس في يافا وأرسوف وغيرها من المدن وقد أنشئت تلك المدارس بجوار المعبد أو داخله ويتعلمون فيها الشرع ودراسة القانون اليهودي ويلتحق بها اليهود الوطنيون أو اليهود الذين جاءوا من فرنسا وألمانيا [١٠١٣] وهكذا كان التعليم عند المسلمين وعند أهل الذمة (اليهود والنصارى) يتسم بالطابع الدينى وفقاً لمفاهيم ذلك العصر.

نخلص مما سبق أن هناك طفرة واضحة بين عدد السكان في عصر المماليك البحرية والذي شهد زيادة في عدد السكان ونشأة مدن جديدة وعصر المماليك الجراكسة الذي شهد تدهوراً في أعداد السكان نتيجة الأوبئة والمجاعات وعدم اهتمام المماليك بإصلاح وترميم المدن التي تهدمت حيث شهد الرحالة خراب الكثير من المدن المصرية والشامية بصورة واضحة وجور وظلم السلطان ونوابه ورغم ذلك فإن السكان الوطنين سواء من المسلمين أو المسيحيين أو اليهود عاشوا حياة هادئة مستقرة فيما بينهم بدليل مشاركة الجميع في الاحتفالات الوطنية والدينية وفي الملبس والمأكل وفي الحياة العامة منعزلين عن السلطات الحاكمة، كما انقسم السكان إلي عدة أقسام واهتم الرحالة بتقسيمهم إلي ثلاثة أقسام هم المماليك والسكان الوطنيين والبدو الذين اعتبروهم طائفة غريبة عن المجتمع المصري من حيث الملبس والمسكن والمأكل والسلوكيات اليومية، أضف إلي ذلك وجود جماعة من المجاذيب والدراويش الذين زهدوا الدنيا وكانوا مصدراً لدهشة الرحالة بسبب ملابسهم ومعتقداتهم الغريبة، ولا

([١٠١٢]) ابن الحاج، المدخل إلى الشرع، ج٢، ص ٣٢٦-٣٣٠.

([1013]) Adler , Jewish Travelers , pp. 139 , 142 , 144.

ننسي أيضًا وجود أعداد من الفقراء والمعدمين في الشوارع الذين لم يجدوا مكاناً غيره للإقامة فيه، فكان الشارع هو الملجأ والملاذ لهم، كما لاحظ الرحالة مدي اهتمام السكان بالبحث عن وسائل الترفيه والتسلية كوسيلة للتخلص من الهموم ومشاكل الحياة اليومية المستمرة وتفننوا في ابتكار طرق للتسلية واتخذوا بعض الأماكن مراكزًاللهو والترفيه مثل منطقة القرافة والأزبكية وغيرها، هذا ولم تخلُ المدن المصرية والشامية من وجود الحمامات العامة التي كانت أساس الحياة اليومية حيث بالإضافة إلي الحمامات الطبيعية الحارة مثل بحيرة طبرية والتي كانت مكان للعلاج الطبيعي، كما كان للمرأة دور بارز وهام في المجتمع وتمتعت بحرية التجول والترحال طوال اليوم إلي السوق وزيارة الأقارب وعملت بالتجارة، وعاب كثير من الرحالة والفقهاء المعاصرون علي تلك الحرية مما جعل الرحالة يصفون بعضهن بالمجون والخلاعة، أما المنازل فقد حرص السكان علي إنشاء منازل رائعة الجمال من حيث التصميم الداخلي والخارجي واهتموا بتجميلها وتزيينها بالزهور والنباتات الجميلة وبالنافورات حرصًا علي توفير الراحة والهدوء في المنزل وحافظوا علي حرمته وذلك بعمل النوافذ الخشبية ذات فتحات صغيرة سيمت المشرابية، كما اهتم السلاطين المماليك بالتعليم فأنشئوا المدارس بالقرب من المساجد وجدت كتاتيب فوق الأسبلة التي أنشئت لتوفير المياه العذبة للمارة في الشارع فكانت صدقة جارية لصاحبها وقد كان يبني بجوارها مساكن خاصة تأوي الفقراء وعابري السبيل أيضًا، أما اليهود فقد اهتموا بتعليم أبنائهم في مدارس خاصة بهم داخل معابدهم.